شَمْسُ اللَيْلِ

رواية

محمود العادلي

● اسم الكتاب
شمس الليل
● التصنيف
رواية
● المؤلف
محمود العادلي

● يصدر عن
دار نشر: شعلة الإبداع

● المشرف العام
الشاعر الإعلامي / أشرف عزمي
● **ت : ٠٠٢ ٠١٠٠ ٩٢٦ ٢٠٠٠ / ٠٠٢ ٠١٢٨ ٠٥٣ ٤٥٠٢**
● **البريد الإليكترونيّ:** shoaletalebdaa@gmail.com

● رقم الإيداع بدار الكتب المصرية :١٤٢٠٤ / ٢٠١٧

حقوق الطبع محفوظة
و لا يجوز طبع الكتاب أو أيّ جزء منه؛ إلا بإذن خطيّ من المؤلف.
و يعتبر المؤلف مسئولاً مسئوليةً كاملةً عن كلّ ما وَرَدَ في الكتاب.

"أنا ..شمس

أحكي عـن نفسـي..عن فتـاة ذات اثنـين وعشـرين خريفـا،من بلـدة في صعيد مصر

طالبة بالسنة الثانية ..كلية الطب البشري جامعة القاهرة ..يتيمة الأب ..مريضة بالصرع و الاكتئاب المزمن..و بجرح عشق غائر..من زمن غابر

قد أكون غير محترفة الكتابة ..لكني محترفة الصدق ..

إذا كنت تريد المتعة ..فلا تقرأ..

إذا كنت تريد الضحك...أرجوك...لا تقرأ

إذا كنـت تريـد الصـدق...إذا كنْـتَ تريـد أن تـرى شمسًـا في حلكـة الليل...فاقرأ...

اقرأ لآخر الحكاية...

و اعلم أنه دومًا بداخل الحكاية حكاية

و بعد الحكاية حكاية...

و أن النهاية لا تأتي أبدًا"...

١

"و أدركت أخيرا
أن حبك كان...في سماء الصيف
سحابة
لابد و أن تنقشع
و فوق الشجر...يمامة
لابد و أن تطير
و قشة
في وسط النار
لابد و أن تحترق
و سراب
في وهج الشمس
لابد أن يختفي!"

٢

"دعِ المناطق الرمادية،
اعبر الحافة إلى الجهة الأخرى، أو إليّ؛
فلقد اكتفيت من الانتظار المهين!"

تبًّا للشوق حين يجعلنا عبيدًا للهواتف، نتعبد لها كل يوم بانتظار مكالمة لن تأتي، حين تدق، تدق قلوبنا بسرعة اللهفة...و نتمنى لو قرأنا على شاشاتها "حبيبي يتصل بك "...
عقب مذبحتك العشقية، كنتُ أنتظر اتصالك في كل لحظة، أحمل هاتفي في جيبي و يدي، أبدًا لم يكن يفارقني. كان قلبي يرقص طربًا لكل رقم غريب يتصل بي، و أتوقع أن أسمع صوتك في الجهة الأخرى تقول لي:"أشتاقُكْ!".
لكني كنتُ دومًا أسمع صوتًا نسائِيًّا مغلفًا بالخيبة، و توالت الخيبات في كل مكالمة، و انقلبت الخيبة يأسًا، و خوفًا من أن أجيبَ أرقام هاتفي الغريبة، فتسلحْتُ أمامها بالصمت، و شيئا فشيئا تعلمتُ التخلِّي عن هاتفي، ثم شيئًا فشيئًا تعلمت التخلي عنك...
و لكن بقيت ندبة جرحي في قلبي تؤذيني كل يوم، لأجلها ذهبت إلى طبيبي النفسي، و لأجلها لا زلت أكتب هنا عنك ! "

٣

"أيها القاسي
أعطني الحجر النابض في صدرك لأحطم به مراباتي
لا حاجة لي بها ،
فلمن سأعدِّل من شعري و أضع المساحيق و الابتسامات ؟
سأرضى بقبحي و أعتز به ، و سأسير فخورة بجراحي كجندي عائد من الحرب المقدسة ، حبا لله سأحيا ،و كرها للشيطان سأضحك ، و حبا لك .. سأبكيك ما حييت!".

في الحادية عشرة من عمري حين كنْتُ على الحدود بين طفولتي و أنوثتي، ذهبْتُ مع أختي و أقربائي إلى عُرْس رجل و امرأة لا أذكرهما. أعتقد أن أحدهما كان من جيراننا في الشارع، و لما أردْنَا العودة ازدحم النَّاس على العربات فلم تتَّسِعْ لمعظمنا، و اضطررْتُ أنا و مرام أختي أن نستقِلَّ سيَّارة مُخصَّصَة أصلًا لنقل البضائع، لكنها كانت مُعبَّأَة بالفتيان من مختلف الأعمار مُكدَّسِين جنبًا إلى جنب كما تُكدَّس البضائع، و انطلقت بنا السيارة، و رأيْتُ شابًّا يُزاحِم الفتيان كي يَصِلَ إلينا أنا و مرام، و وقف خلف مرام و رأيْتُه يحاول التحرُّش بها، لم أكن أفهم بالضبط و لا هي بالطبع ما يحاول فعله لكنا علمنا أنه أمر سيء، فنظرَتْ إليه مرام ثم نظرَتْ إليّ، فسحبْتُها بقوَّة و جعلْتُها واقفة أمامي وظننْتُ أنه سيكتفي بما كان، لكنه وقف خلفي أنا، و أحسسْتُ به يلتصق بي رويدًا رويدًا، ثم أحسسْتُ بيديه على كتفي و على ظهري.

و مضت ما يقرب من نصف الساعة، حتى وصلْنا إلى شارعنا. كانت أختي قد رأت كل شيء، و كانت دقائق الصمت العشرة التي فصلت بيننا و بين بيتنا و نحن نمشي جنبًا إلى جنب هي أبشع برهة من الزمن جمعت بيننا إلى الآن. لم أمتلك الجرأة أن أخبر أمي و أبي بأي شيء، فقط اكتفيْتُ بالبكاء المُرّ فوق وسادتي حتى غلبني النوم. و تواطَءْنا أنا و أختي في صمتٍ على الصمتِ، و بمباركة الزمن نسيْتُ ما كان، إلى الآن...لا أدري لم تذكَّرتُ هذا الآن، ربما أنا لم أنسَ ذلك قط، كنْتُ فقط أدَّعِي ذلك.

العالم مليء بالشر، أليس كذلك؟ قد يبدو مصابي هيِّنًا بين مصائب العالم، لكن هذا العالم الذي تتحدثون عنه ليس عالمي، عالمي صغير جدًّا بحجم طفولتي و حبك الراحلَين.

أتدري ، إني لا أشعر بالغضب إزاء ذاك الفتى الذي تحرّشَ بي، بل على العكس إني أُشفِق عليه، لابد أنه قد تحرَّش به أحدهم قبلًا و هو صغير، و هو ينتقم من العالم بأن يتحرّشَ بالصغار، هكذا نعيش عالمنا ندور في حلقة الذَّنْب ضحايا ثم مُتَّهَمِين، و يبقى المُتَّهَم الأول خارج الحلقة لا يدركه أحد.

تقول أني أُنَاقِض نفسي، لأنّي أُسامِح من آذَى براءتي و لا أسامحك أنت؟ إني حقًّا لا أسامحك؛ لأني لو سامحتك سأنساك، و أنا لا أريد أن أنساك...على الأقل الآن...

تقول الآن أنّي أُناقِض نفسي ثانية؛ إنْ كنْتُ لا أريد نسيانك لماذا إذن أستعين على ذكراك بطبيبي النفسي؟ إني لا أريد نسيانك، لكني أريد أن أرتاح منك، أريد ألَّا أنساك و لا أتألَّم بك، على هذا تعاقدْتُ مع طبيبي،

و لهذا أتكبَّد عناء جلساته و التسلُّل خفية إليها مرَّتين كل أسبوع، تمامًا كما كنْتُ أتسلَّل خفية كي أراك، صدقًا لقد تعبْتُ و مللْتُ من كل لقاءاتي السرية.

يا إلهي! إنني أتحوَّل إلى طبيبة نفسيَّة، لعلّي أستطيع شفاء نفسي و لا أحتاج إلى الذهاب إلى طبيبي الآن؟ ربما كان بوسع الكتابة أن تشفيني حقًّا، من يدري...لقد ظننتُ هذا في وقت ما، لكني كثيرًا ما أظن أنها تزيد مَرَضي بك، ربما...لكن الكتابة هي مُتنفَّسي الوحيد الآن. لقد جرَّبْتُ الحديث إلى أختي و أمي وصديقاتي و العابرين من أصدقاء شبكات التواصل الوهميين، و جرَّبْتُ الحديث إلى وسادتي بالدَّمع كل ليلة دون فائدة، و جرَّبْتُ الحديث إلى طبيبي دون فائدة، ربما كان الخطأ مني أني لم أكن أفصح بكل شيء، فقط ما يُبرِّئ ساحتي و يُلطِّخ ساحتك، لكي أسمع منهم هذه الجملة:" أنتِ لم تخسريه لكن هو الذي خسرك!" و أستعيد بعض الثقة في نفسي أني أستحقُّ الأفضل، لكن كان شعوري هذا مؤقتًا ككل شيء جميل كان في حياتي، بل كثيرًا ما كنت أؤذي أولئك الذين حاولوا الاقتراب مني؛ كنت أرى جُلَّهم يدَّعون كذبا أنهم يتقرَّبون مني لمواساتي في محنتي، و أنهم في الحقيقة يفعلون ذلك ليرضوا فضولهم أو يرضوا شهوتهم ،آذيتُهم بشدة، و علمْتُ حقيقة تلك المقولة:" الزجاج المُحطَّم يجرح من يقترب منه و يحاول لم شتاته"...لذا قرَّرْتُ أن كفى، و لأكتفِ بالبوح بكل شيء لأوراقي، و أحاول قدر جهدي أن أكون مُنصِفَة رغم ما يعتريني أحيانًا من لحظات السخط و الغضب التي تدفعني أن آخذك بذنبك و ذنبي، فليسامحْني الله،و لتسامحْني...

٤

"كيف أسير ؟ و لازلتُ أتعثَّر في حبال الذاكرة

كيف أسير؟ ولا زالت أرض نسيانك هشَّة كلوح جليد ،تتشقق تحت كل خطوة أخطوها نحو رجل غيرك..

كيف أسير؟ و الإشارات كلها حمراء، و الأرض كلها صفراء و السماء كلها سوداء، والأنوار تسطع فقط من خلفي فلا أرى أمامي سوى ظلي...

كيف أسير؟ و رأسي يتلفَّتُ كل حين إلى الوراء كلص، وأذني ترهف السمع تنتظر أن تسمعك تناديني أن عودي...

كيف أسير؟وصقيع الوحدة يلذع جلدي، وحرائق غيظي منك تلتهمني من الداخل

كيف أسير في هذا العالم، وأنا التي اعتادت سكنى أضلعك و التريض تحت جلدك والسفر في أوردتك...

كيف أسير؟ وأنا لم أعد أقوى على المسير، و لم أعد أرغب في المسير ، فقط أرغب في التكوم على جانب طريقي وأبكيك كطفلة خطيئة...

كيف أسير؟ "..!!

تائهة أنا ،كشيطان يريد التوبة...

طبيبي عنَّفني البارحة؛ يقول أنه علي أن أكتب بالعامية لا بالفصحى كي لا تحبسني اللغة عن مشاعري الحقيقية، فأخبرْتُه أن العامية للحديث لا للكتابة، الكتابة شيء مُقدَّس لا يمكن أن تُدَنَّس بكلامنا المحرف، حتى لو كنتُ أكتب مشاعري، تخيَّل أني أكتب" أنا فرحانة قوي"

و تخيَّل أني أكتب"أنا عصفور تائه وجد عُشَّه أخيرًا!" أيهما أجمل و أبلغ؟

حسنًا البارحة جفا النوم عيني، وأخذ عقلي السَّاهِر يُقلِّب في صور ماضيَّ القريب والبعيد بلا هوادة، وأخذتُ أعد خيباتي فلم أكفَّ عن عدها حتى غفوتُ نائمةً، تذكَّرْتُ تلك المرة التي عدْتُ من المدرسة فرِحَة أني حصلتُ على الدرجة النهائية في أحد الاختبارات وأعطاني الأستاذ قلمًا كجائزة، أسرعْتُ إلى غرفة أمي وأبي فوجدْتُ أمي جالسة على ركن السرير كبناية قديمة متهالكة تبكي بصمت، و أبي على الركن المقابل يعد أموالًا في ضيق وغضب، سألتُهما ما الأمر؟؟ فلم يجيبا. ذهبتُ إلى أمي أسألها ما الأمر، قالت بصوت يتخلَّلُه الدموع: " لا شيء " أردْتُ أن أفرحها فجلست بجوارها و أريتُها القلم و أخبرتُها أنه جائزتي، فهزَّت رأسها ناظرة إلى الأسفل ولمَّا يمقطِع الدمع من عينيها،ثم ضمَّتْني إليها برفق وقبلت رأسي، أخرجْتُ منديلًا من حقيبتي المدرسية و أعطيتُها إياه. ذهبتُ أبحث عن أختي أسألها عما حدث، فقالت باندهاش:" ألا تذكرين؟" فعلمت لحينها ما جرى، لابد أن نوبة صرع قد أصابتني أول أمس وأنا نائمة، قلتُ بخوف:" لا! .. ماذا حدث؟"، فأخبرتني أن نوبة أول أمس كانت عنيفة للغاية، و أني كِدْتُ أختنق و يتصل نومي بموتي. لهذا لم توقظني أمي كيأذهب إلى المدرسة البارحة، ولهذا كانت تبكي اليوم، و لهذا كان أبي يعدُّ أمواله في يأس؛ لقد أخبره صديق أنّ جرَّاحًا عالميًا مُتخصِّصًا في جراحات المخ سيأتي إلى مصر قريبًا وعلينا أن نستشيره، ربما يكون شفائي مُخبَّءًا بين مشارطه و مِقصَّاته، بعدما أعياني البحث عنه في علب دوائي الكثيرة الباهظة بلاجدوى .

٥

"هكذا تقول لبني إسرائيل : يهوه إله آبائكم إله إبراهيم و إله إسحق و إله يعقوب أرسلني إليكم " الزبور.

"ويعلموا أنك اسمك يهوه وحدك العلي على كل الأرض " العهد القديم.

" اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا هو الرب الوحيد . فأحبب الرب إلهك بكل قلبك و كل نفسك و كل ذهنك و كل قوتك " العهد الجديد.

"الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة و لا نوم " القرآن .

الله ، أيها الخالق..

إني حزينة أني لم أعرفك بعد، إني أجتهد كل يوم في البحث عنك، لكني لا أعرفك، ولا أفهم تدابيرك، ولا أشعر بما يدَّعِي الناس من لذة القرب منك، أخاف أن أموت قبل أن أعرفك يا خالقي، كل شيء فانٍ إلا أنت لأن كل شيء سهل إلا أنت، أنت صعب جدًّا يا الله، أدري أنك أكبر و أعلى من إدراكاتي الحسية، لكن ماذا عن روحي لماذا لا تستطيع الوصول إليك؟ أليست روحي من روح آدم؟ و روح آدم من روحك؟ لم لا يستطيع الجزء أن يبلغ كله ؟ و لِمَ لَـمْ ينل الجزء ما تجمَّـل به الكل و لو حتى القليل اليسير؟

أعرف أسماءك، أعرف أنك الحكيم، لكني نادرًا ما أتصرف بحكمة، و نادرًا ما أرى حكمتك في المقادير. وأعرف أنك القوي، لكني ضعيفة و خاوية كجيفة، و لما حاولتُ التَّقَوّي بك خذلتني كل محاولاتي. أعرف

أنك الهادي، و لما دعوتُك أن تهدي قلبي و تريحني من ضباب أسئلتي لم أجد منك ردًّا.

هل أشحت ناظريك عني و نظرت بهما إلى من هم أطيب قلبًا و أقوى دينًا مني؟ هل أنت غضبان عليّ؟ هل كتبْتَني في رحم أمي شقيَّة؟

أخشى ما أخشى أن أُفني حياتي في الأسئلة دون رد، و أُضيِّعها دون عمل يرفعني في الدنيا أو في الآخرة، و أخرج من الدنيا بأسئلة أجد أجوبتها في الآخرة، أسمعها وأنا تُسعَّر بي النار !

يا الله! دعني أرى رسولك، أريد أن أرى محمـدًا، أريده أن يُربِّـت على كتفي و يدعو لي، لعلي أُشفى...

يا الله! هل أنت سامعي ؟هـــل أنت مجيبي ؟ هـــل أنتظر النبي الليلة؟ سأنتظره كما أفعل كل ليلة،أملي ليلي على غير عادة الناس، أملهم دومًا في صباح جديد.

٦

ترقَّبْ إذا جنّ الظلام زيارتي
فإني رأيتُ الليل أكتم للسرِّ
وإني منك ما لو كان بالشمسِ
لم تلح و بالبدر لم يطلع
وبالنجم لم يسر !
" الولادة بنت المستكفي "

اليوم ذهبتُ إلى الخياط في حي بعيد عن مسكنا، بكَّرتُ بالذهاب إليه أول الليل كي لا أتأخر بالعودة لكنه كالعادة كان متأخرًا عن حياكة فستاني، فانتظرْتُ وطال انتظاري، وخرجت من عنده مُلتَحِفَة بظلام الليل و سكونه، ذاك الشارع غير المُمهَّد المحفوف بالزرع من جهة و القناة من الجهة الأخرى، إنه مطبوع في ذاكرتي بأكبر مخاوفي و أبشعها منذ صغري، تلك الليلة التي خرجتُ فيها من عند ذاك الخياط بصحبة أمي و لم نجد ما يقلُّنا إلى البيت فاضطررنا أن نمشي، كنتُ خائفة و شددتُ على يد أمي كي لا تفلتني، كانت أمي تبدو حينها واثقة ثابتة لكني الآن أعرف أنها كانت خائفة مثلي و أكثر، لم يكن من أحد سوانا، و لما بلغنا منتصفه سمعت ذلك الصوت، ذلك الصوت لن أنساه ما حييت، صوت صراخ مكتوم مستمر. شددت على يد أمي أكثر و تسمرت في مكاني، سألتني:"ما بك؟"، سألتها:" ألا تسمعين؟" قالت:" لا أسمع شيئًا!"، لكن الصوت لم يتوقف كان الصوت يخرج من جانب

الطريق الأيسر جهة القناة، نظرتُ فلم أرَ سوى الظلام، دقَّقْتُ النظر فإذا بسواد يجلس ساندًا ظهره إلى نخلة قائمة على حافة الطريق، لقد كانت امرأة ملتحفة من رأسها لأخمص قدميها بالجرجار الأسود، زيّ نساء القرى. كان صوت الشيطان ينبعث من خلف نقابها، حملقتُ فيها لثوانٍ ثم تاه وعيي، و لم أفقْ إلا في سريري، انعقد لساني بعدها لثلاثة أيام فلم أقوَ على النطق بكلمة، و تبادل الطبيب و الشيخ زيارتي حتى نطقتُ في اليوم الرابع بالاستعاذة فالبسملة ثم آية الكرسي، سألتني أمي عما جرى فأخبرتها عن تلك المرأة لكنها أنكرت رؤيتها كما أنكرت سماع صوتها. علمتُ فيما بعد أنه منذ عشر سنوات انتحرت إحدى فتيات القرية غرقًا في نفس المكان لأنها أحبت شابا و حملت منه سفاحًا فأنكر الحمل و تركها و تزوج بأخرى، و علمْتُ أن غير فتاة ادَّعين رؤيتها قبلي و جميعهن صغيرات، أو شابات أبكار. كانت البكر تسير بجوار الثيِّب ليلًا في ذاك الطريق فتراها الأولى و لا تراها الثانية!

لكني اليوم لم أسمع و لم أر شيئًا، ربما ثيَّبَني حبك، ربما لم تظهر لي لأنها ظهرت لي قبلًا، و ربما هي تظهر للصغيرات لتحذِّرهنَّ ممَّا ينتظرهنَّ من فواجع عشقيَّة. لو كنت رأيتُها ثانية ما كنت لأفزعَ منها، بل كنت لأذهبَ إليها و أحتضنها و نبكي سويًّا، و لاعتذرتُ لها أني لم أفهم الرسالة، أن الذكورة تمنح صاحبها أطفالًا لكنها لا تجعل منه رَجُلًا، و أن كثيرًا من الذكور هم فقط أنصاف رجالٍ سفلية، و أن علي أن أحذر من مشاجب الحب الهاوية فلا أُعَلِّق قلبي بها، فليس هناك بالأسفل شبكة أمان، فقط بحر غريق من الندم!

كفاني جنونًا لهذه الليلة، سأجرّب فستاني الجديد ثم أخلد للنوم، آه و قبلًا سأتناول دوائي بالطبع...أين أنت يا دوائي العزيز؟ يا من تُقبِّل حباتك شفتيَّ كل صباح و مساء لتشفيني... اشتقت إليك ...و لعنة الله عليك !

٧

أيها الحب أنت سر بلائي و همومي و روعتي وعنائي
و نحولي وأدمعي و عذابي و سقمي و لوعتي و شقائي !
يا سلاف الفؤاد ، يا سم نفسي في حياتي ، يا شدتي ، يا رخائي !
ألهيب يثور في روضة النفس فيطغى،أم أنت نور السماء ؟ "!!

" أبو القاسم ألشابي"

غريب ما أشعر به نحوك، في الصباح أشعر أن الأمر كله كان خطئ ، وألوم نفسي و ألذعها بسياط التأنيب بلا هوادة، و أبغضني و أبغض كل لحظة خذلْتُ فيها حبنا الهش الضعيف، وأنّه كان عليَّ أن أتمسَّك بك أكثر و أقاتل في سبيلك أكثر، و أشدُّ على يدك بكل ما بقى لي من قوة لما قررت أنت أن تترك يدي، ثم يحل الليل و يغطيني بالصمت،

و يرن صوت شيطاني كالرعد يلومك أنت على كل ما حدث وما لم يحدث، و أشعر بالشفقة على نفسي و أتمنى لو كان يمكنني الانتقام منك، أفكر في ألف طريقة أستطيع بها القصاص منك، لو أني أخبر زوجتك البلهاء عن حماقاتك معي، لو أني أنقض عليك في الليل و أغرس سكينا في قلبك المتحجر، أو أرميك برصاصة تخترق غرورك وقسوتك، أو أني أقتل نفسي و أترك رسالة أُحمِّلك فيها ما فعلت و ما لم تفعل، ولأحترق أنا بجحيم الآخرة و لتحترق أنت هنا بجحيم الأسئلة!

لكني أشعر فجأة بالعجز، لا أريد أن أؤذيك و في نفس الوقت لا أطيق فكرة أنك حيٌّ بمكان ما بالخارج تهنأ بدفء امرأة، فأكتفي بالصراخ، ثم التفكير في الأيام العذبة بيننا حتى أنام، هكذا تمر أيامي ممزقةً بينك و بين غيابك .

٨

مشكلتي أني امرأة و رقية...

خلقني الله من ماء العاطفة و تراب الخوف، كنت أخاف من الوحدة، ثم صرتُ أخاف من فقْد رَجُلِي، ثم حين فقدْتُه بتُّ أخاف من نفسي ،قلبي المحترق بات يحرق كل قلب يحاول الاقتراب منه بتلذُّذ مَرَضيّ .لم أعد أغلق الأبواب أمام حُجَّاج قلبي كما اعتدت أن أفعل قبله بل صرت أتعمَّد جذبهم إلي، و لمَّا يتمنَّوا على أنفسهم الأماني و يُخيَّلْ إليهم أنهم على شفا عشق، أقطعْ حِبال وصلهم و أكسر قلوبهم بقسوة موتور يشتعل في حرائقه كل ليلة، و أتمتع بتعذيبهم بساديَّة عِشقيَّة مخيفة.

كُثرٌ هم زملائي الحالمون، تلك الغربان الحائمة حول ما بقى من جثتي المسمومة بحبك. لقد صرتُ بائعة سراب، تمامًا مثلك! صدق فيك قول أحلام حين قالت:"رجل هرب من امرأة سيهرب بعدها من ألف امرأة و امرأة ".

يا رجل الهروب كم امرأة بعدي دهست قلبها بوعودك الكاذبة؟ إني أعلم بكل قصة عشق زائف ليس لها خاتمة كتبتها بعدي، و كم من مرة ادَّعيت العفة و الاستقامة و طرقت الباب طالبا الزواج، ثم حين فتح لك الباب فررت هاربًا كطفل يلهو، لكنك لست طفلًا يلهو، أنت طفل يتعذب في جحيم من صنعه هو. لقد حمَّلْتَ نفسك أكثر من طاقتك،

خدعَتْكَ رجولتك و توهَّمْتَ أنك تقوى على الرحيل و الوقوف وحيدًا بلا عُكَّاز نسائي يسندك.

إني أمتلئ شفقة عليك، و أعلم أنك تائه لا تدري ماذا تريد و من تريد،

و أعلم أنك عشقتَني كما لن تعشق أبدًا بعدي، و أنك فررتَ من برّي إلى بحر أحلامك الغريق ثم لمَّا استبدَّ بك الفقد و أوشكتَ على الغرق أخذت تُلَوّح بيديك باحثًا عن يدي، لا ياعزيزي لم أعد أنا هنا، فقط نساء كغثاء السيل و قشّ ليّن ما إن تُمسِك به حتى يذوب و يتفسَّخ في يدك!

إني أُشفق عليك، ليتك تعلم أنك - بسرعة امرأة في الساعة - تعدو نحو حتفك، و أن إحداهُنَّ ستكسر قلبك حدَّ الموت، امرأة مثلي مكسور قلبها...

٩

"في زوايا مدينتي
انطفأت الآمال ، كأعقاب السجائر
بالكاد أشم رائحة الرماد
ويل لكم،
حتى الأمل لم ينج منكم
خبِّروني...كيف كان ليؤذيكم
وهو مختبئ في خوفه كطفل ؟ "
القاهرة..

كل شيء يبدو هنا واسعًا بلا نهاية، لا أستطيع أن أسير هنا دون أن أشعر بالخوف و دون أن أتلفَّت خلفي و حولي كهاربة. بذاك الكورنيش المحتل بأصحاب الكافيهات و أرصفة الجسور المُحتلَّة بعربات وكراسي حُمُّص الشام، و بائعي الترمس والبطاطا و العشاق الهاربين ،و الشحاذين من جميع الأعمار و تلك الميكروباصات المجنونة و الباصات المزدحمة...
القاهرة ، مدينة الأنوار
كنْتُ و أنا صغيرة أشعر برغبة عارمة في السفر إلى القاهرة و السكنى فيها. كنتُ أرى بلدتي الصغيرة مرتعًا للجهل و التخلُّف، و كنت ألحُّ على أمي أن ننتقل للعيش فيها، فتخبرني أن بلدتنا أفضل بكثير، فما كنتُ أقتنع بجوابها، و ها أنا ذا حبيسة الإقامة الجبرية

بالقاهرة في سكن الطالبات الجامعي لتأدية واجبي نحو ذاتي و أمي، أن أصير طبيبة يُشار إليها بالبنان، و ها أنا أكره العيش في القاهرة شيئًا فشيئًا حتى ملأني الخوف من يوم ينفجر فيه بارود كراهيتي و أنهار و أترك كل شيء خلفي و أعود إلى حضن بلدتي الدافئ لأختبئ فيه من قسوة العاصمة.

لقد طَبَعَتْ العاصمة أهلها بالقلق و التوتر و الخوف، أشعر أن الناس هنا جميعا مُعلَّقون فوق الأسياخ و يتقلَّبون في الجمر، الوجوه في الشوارع دوما مُكفهِرَّة و الأصوات عالية و المُشادَّات و السباب في كل مكان، أصوات سرينة الإسعاف و الشرطة لا تتوقَّف، و الناس فقيرة لكنهم مُتكدِّسون أمام السينمات والمسارح و الملاهي، و يبتسمون و يضحكون خارجها و داخلها لكن أعينهم دومًا تُحدِّث بشيء من القلق أنهم يهربون من شيء غامض لكنه قوي، حُمُر مستنفرة في فرار دائم من قساور خفية، ولقد انضممت إلى ذاك القطيع الفار منذ يومي الأول...

يقولون القاهرة أفضل حالا من دمشق و طرابلس و بغداد، لكن زيارة واحدة لتلك المدينة ستخبرهم أنها تتآكل كل يوم و تنهار، الجياع يزدادون بتوحش، و الأسعار ترتفع كمناطيد مفلوتة، الجرائم كلها تُرتكَب من سرقة و نصب و تحرُّش.

القاهريون مُغَطُّون بالرماد، لكنهم يشتعلون أسفله، و يومًا ما سيَحرِقون كل شيء حتى أنفسهم، إنها مسألة وقت فقط!

١٠

لو كنت تنصفُ في الهوى ما بيننا لم تهوَ جاريتي و لم تتخيرَ
وَتركتَ غصناً مثمراً بجماله و جنحتَ للغصنِ الذي لم يثمرَ
و لقد علمت بأنني بدر السما لكن دهيت لشقوتي بالمشتري !

" الولادة بنت المستكفي "

لا أدري لم صار كل شيء أجوفَ، كدمية مفرغة من الحشو. كل شيء كان يومًا حلوًا صار بلا مذاق، الطعام، الشراب، أمي، أختي، القراءة الكتابة، النزهات، السفر، الأمل، الحياة، القرآن، الموعظة، كل شيء صار عاديًا، حتى القرآن لم يعد يحرك أحجاري الساكنة كما اعتدت في صغري، دموعي تجمدت و مقلتاي تحجرتا، و صرت أقرأ القرآن كما أقرأ الجريدة، حتى الحب، كل الرجال، حتى أنت، صار كل شيء و كل شخص شفافًا أرى من خلاله عراء الأشياء و تفاهتها!
أهكذا يعرف الناس أنهم كبروا و ودعوا طفولتهم؟ أن يُصيبَ أرواحهم الملل دون أن تكون هناك أية وسيلة للمتعة و التلهي؟ أشعر كأن رأسي سينشق إلى نصفين، ربما الدواء الجديد هو السبب.

رأيتُ شقيقتك اليوم، كانتْ تعبر الطريق أمام سيارة صديقي، كنتُ ملقيَّةً كمتاع على المقعد بجوارها، و حين رأيتُها تكهربت أعصابي و انتفخت عروقي و دبَّت فيَّ روح بوسيدون الغاضبة، و اعترتني رغبة جامحة في أن أمد قدمي نحو دواسة البنزين لأدهسها، أكرهها و أكره كل ما يمتُّ لك بصلة، أريد أن أحرق كل ذيولك في هذا العالم، أتمنى لو أراك تتعذَّب بالفقد كما عذَّبتني لسنوات بفقدك، أريد أن أراك

جاثيًا باكيًا كامرأة ثكلى و أدقُّ الطبول الأفريقية حولك و أرقص رقصات الموت. تحب الرقص أنت،أليس كذلك؟ و ماهر أنت فيه أيضا، تجيد الرقص على الأغاني الصاخبة و الهادئة و العربية و الفرنسية و الأسبانية، و استعرضت مهاراتك كلها يوم عرسك بحرفية مبالغ فيها، و وقفت عروسك كالبلهاء تصفق لك في إعجاب و اندهاش، و تحاول أن تجاريك في رقصك فتبدو أكثر بلاهة. شاهدْتُ تسجيل عرسك عشرات المرات، و في كل مرة أضحك و أبكي كأني أشاهده لأول مرة ،أضحك عليك، وعليها، وعلى قول غسان:"المرأة توجد مرة واحدة في حياة الرجل، و الرجل يوجد مرة واحدة في حياة المرأة...وعدا ذلك ليس إلا محاولات التعويض، بذل النسيان و الندم راقة فوق راقة! "

لم تبدُ مُتذكرًا أو نادمًا أبدًا و أنت ترقص ال Tangoو ال Salsa!

كم تقدس نظرة الناس إليك! لذلك تركت تلك الفتاة المريضة المخبولة...كيف كان الناس لينظروا إليك لو تزوجت من امرأة مخبولة؟و كيف كانوا لينظروا إلى أبنائك لو ورثوا مرض أمهم؟ كم كنتَ لتصمد أمام تأنيب أمك لك على اختيارك غير الموفق؟

لقد اخترتَ الطريق القصير السهل، طريقي أنا كان طويلًا و شاقًّا ومحفوفًا بالفشل...على أي حالٍ مباركٌ عليك عرسك و سريرك، و مباركة هي البطن التي ستحمل أبناءك، وعقلك الذي سيخلو مني ليمتلئ بإيجار شقتك، مشاكل عملك،مصاريف أبنائك، ما ستُعِدُّه لك زوجتك بالغداء و العشاء.

مباركة حياتك الجديدة ، و ملعونة كل حياة دهستها في طريقك لتبنيها!

١١

هذه الكلمات كتبْتُها بعد مذبحتك العشقية بشهر:

.." كُنْتُ أوضِّب حقائبي للسفر برفقتك ، ثم أفرغتُها

و وضَّبْتُ تابوتًا بمقاساتك في ذاكرتي ؛ ليسعك !"

كان كل شيء في أثرك مؤلمًا، كل دقَّات الهاتف التي لم تحمل صوتك. كل الرسائل و الخطابات التي لم تُذيَّل باسمك، كل الحياة التي خلت منك و امتلأَتْ بالعبث...

أكثر ما أكرهه فيّ أني لا زلتُ مرهونةً بك، كل ما في يومي يَمِتُّ إليك بصلة بطريقة أو بأخرى، ربما أنا أحب أن أُبقي الأمر كذلك لأتخيل أنك لا زلت بعد هنا، لكن الحقيقة أنك بعيدٌ، جسدك يملأ جسدًا آخر بالدفء كل ليلة و روحك العصفورية تسكن إلى عشٍّ جديد لا أدري حتى مكانه.

محوتني من دفتر مواعيدك المزدحم و قائمة أحلامك التي لا تنتهي، و كتبْتَ اسمًا نسائيًّا آخر بحروف أخرى، كيف طاوعك _أتساءل كل يوم_ كيف طاوعك قلبك و القلم؟ ألا تسأل نفسك كيف لعلَّها تلك المسكينة التي تركتَها خلفك كطفلة خطيئة؟ أما استفزَّت فيك صرخاتها شيئًا من الشفقة؟ إنها تدري أنها كانت عِبْءًا عليك و طوقًا يخنق رقبتك، تمامًا كما كنتَ أنت تدري أنها لن تقوى على العيش بدونك، لكنك رغم ذلك قرَّرْتَ أن تشتري حريتك بحياتها بقسوة تاجر يهودي جشع...

مشكلتي الآن أني لازلْتُ أقف على ناصيتك أترقب عودتك، و لا أصدِّق أبدًا أنك رحلْتَ إلى مرفإٍ آخرَ، لا أصدق ذلك...

أدَّعي كل يوم أمام نفسي و الناس أني نجوتُ من بحرك وعبرتُك إلى برِّ النسيان، لكني كل ليلة أخونني وأخونهم مع ذاكرتي، و أبحث عنك كمدمن يبحث عن المُخدِّر، وما إن أجدك مختبئًا هنا أو هناك داخل سراديبي حتى أحشو بصوتك أذني و أغلق عيني على صورة وجهك و أطلي وسادتي برائحتك و أحتضنك بكل حواسي ، و أتخيَّل أنك لا زلت بعد هنا "...

كم تبدو هذه الكلمات الآن في عيني ضئيلة و مُبتذَلَة رغم أني كتبتها_يوم كتبتها_ بالدموع...

إننا نظن أن من يفارقنا سيظل حيًّا فينا أبدًا، لكننا في الحقيقة يوم رحيله نبني له بداخلنا ضريحًا دون أن نشعر، يضمُّ كل يوم جزءًا منه حتى يندثر كله تحت النسيان.

كل العابرين يموتون، و كل الجراح تلتئم، حتى تلك التي نُلوِّثها بحبر كتاباتنا كل يوم!

١٢

"كانت مثله ، مليئة بالقصص الكثيرة حتى انتهت ضحية في عمق الحكاية !"

" واسيني الاعرج "

لا أدري متى بالتحديد انطفأْتُ ، و توقفتُ عن الحياة

لم يبدأ الأمر مع حبي الفاشل ، الأمر بدأ قبل هذا بكثير ، شيئًا فشيئًا جفَّتِ الأشياء فيّ، وصرتُ جثةً تتنفس ، حين أقف مع زميلاتي و تُلقي إحداهنَّ دعابةً أشاركهنَّ الضحك لكني لا أشعر بالدعابة و لا أسْتخفُّ ظلَّها رغم فهمي لمعناها ، لكني أضحك لأنها ينبغي أن تكون مضحكة ، بتُّ أفعل كل شيء لأنه ينبغي فعله لا لأني أريد فعله ، كثيرًا ما أتأمل زميلاتي،أراقب كيف يستطعْنَ أن يمارسْنَ السعادة بكل تلك التلقائية بينما أجتهد أنا كل يوم في اصطناعها ، و أتساءل هل يعلمون أني أُمثِّل ، و أنَّ داخلي أملس كصخرة ؟

صرت كثيرة السرحان و النسيان ، لم يسعفني عقلي إلا في تحصيل نصف الساعة الأولى من محاضرة التشريح ، ثم الربع ساعة الأولى من محاضرة الفسيلوجيا ثم لا شيء من محاضرة الكيمياء ، كانت الكلمات تشبه الخواء ، و بدا الأساتذة كأنهم روبوتات ناطقة ، و كنْتُ أنا روبوتا أبكم يسمع و يُدوِّن دون أن يفهم شيئًا .

حين أيأس من فهم محاضرة أستغرق في النظر إلى زملائي ، دومًا ما يبدون جميعا متشابهين ، مقطِّبين الوجوهَ مُؤتَّبي الظُّهران ، حاملين

رؤوسهم الثقيلة فوق كفوفهم كي يمنعوها من السقوط و التدحرج إلى خارج ذاك المُدرَّج الكئيب ، عيونهم الحمراء و آذانهم الوردية تفضح ما يدور بالداخل من معركة شرسة لهضم هذا الكم الكبير من العلم الجديد ..

معظمنا هنا مبتدئون خَجِلون ، منغلقون على مشاعرنا بأقفال عصية الفتح ، لكن المُدرَّج رغم ذلك لم يكن ليخلوَ تماما من لحظات التشويق و الإثارة ، بين الحين و الآخر يطفو حب خفي إلى السطح و ينفضح في نظرات مُختَلَسة من زميل لزميلة أو العكس ، كنتُ أجد متعتي في رصد تلك النظرات و ربط الخيوط بين القلوب المتباعدة ، ثم أشفق على ذاك المحب الخفي حين تنتهي المحاضرة فيذهب كلٌّ في طريقه دون أدنى محاولة حتى للفت انتباهها إليه ،و يأتي الغد و تبدأ المحاضرة و يبدأ معها مسلسل النظرات الهزلي ، لذلك ، أهوى أن أجلس في نهايات المدرج حيث أرصد كل شيء بإتقان عدا كلام الأستاذ ، و أيضا تحسُّبًا أن تباغتني نوبة صرع فأكون على قدر الإمكان في منأى عن الأنظار، لكني أبدًا لم أكن في منأى عن أسئلة المحاضر ، بل كان كثيرًا ما يسألني أنا فقط ليتأكد أني متابعة للشرح ، و كأنه حقًّا يبالي !

الحقيقة أنه لا أحد يبالي ، المحاضر يسألني لا ليتأكد أني أستفيد بل ليتأكد أني أعيره اهتمامًا، و أنا أتصدَّق على الفقراء كي أنال الثواب و أشعر بالرضا عن نفسي أني أُغيِّر شيئًا في هذا العالم ، لا أني أهتم بأمر ذاك المسكين ، حين أدرس و أذاكر فإني أفعل فقط كي أصير أفضل ممن هم حولي ، و أزيد رصيد احترامي و تبجيلي عندهم ، لا

لدين و لا وطن و لا بشر ، و لا لأمي كما أدَّعِي أمام نفسي و أمام الله ،أدعو دوما:"رب اجعلني قُرَّة عين لأمي" و لو صدقتُ لدعوتُ:"رب اجعلني قُرَّة عين لنفسي" ، هذا ما أتمنَّاه و أفكر فيه دومًا ، نفسي نفسي..

معظم الليلة قد مرَّ و النجوم على وشك الاحتراق ، عليّ أن أخلد للنوم كي أقوى على متابعة ذاك الماراثون الذي لن ينتهي إلا عند شاهد قبري ، المعروف باسم " الحياة " ، تصبحين يا أنا على ذكريات غير مرغوب فيها و أسئلة ثكلى فقدت أجوبتها..

١٣

"اكتشفت فجأة كم أنا وحيدة في هذه الدنيا .. قد لا يكون غياب شخص مُهِمًّا ، كلنا سنذهب يومًا ، المشكلة في هذا الفراغ المهول الذيتركه وراءه ، و يحتاج إلى زمن طويل لترميمه ،هل العمر يسعف بعد كل هذا الزمن ؟؟ "..

" واسيني الاعرج "

أغطس بحثًا عن الأمان، فيضيع مني كل شيء على عمق تنهيدة..

إنني أعافر في حياتي لأهداف لا أدركها ، أريد أن أستلقي على جانب طريقي و ألتقط أنفاسي ، أريد أن أرفع كل تلك الحمول الجاثمة على قلبي ، و أطير في فضائي بخفة ريشة ، أهذا كثير؟؟

صديقتي ليلى مات أبوها البارحة ،كان ينبغي ألا يموت ، و ما كان ينبغي لكل هذا الحزن أن يحط على كتفيها ، قليل من الأمانة كان يمكن أن تنقذه لكن ماذا أقول في بلاد تضيع فيها الأرواح سدى كأننا أفراخ دجاج ، جلطة قلبية كانت تخترق شرايين قلبه ،فقط يحتاج سريرًا في رعاية مركزة ، فقرُنا يأكل كل احتمالاتنا ، لا يترك لنا سوى رعايات المستشفيات الحكومية ،بحثْنا في مستشفيات جامعتنا فلم نجد ، لم يشفع لنا أننا طالبتان من أبناء الجامعة ، لم يشفع بكاء صديقتي وصراخها ، كنا نصرخ فيجيبونا بالسباب حينًا، و بالضحكات الساخرة الغير مبالية حينًا آخر ، خرجنا إلى وزارة الصحة العليلة وعدُونا بسرير في أقرب وقت ،انتظرنا ، و انتظرنا ، عقارب الساعة تمرُّ برقابنا

ببطء فتذبحنا كالسكاكين التلمة ، و تمرُّ بقلب أبي ليلى المُجهَد فتسلبه الحياة شيئًا فشيئًا، حتى توقَّف ، أسرعنا به إلى غرفة الإسعافات ، طرقوا على صدره لكن القلب الغاضب الناقم على ظلم الوطن أبَى أن يجيب ، وقرأَتِ الأجهزة صمته الأبدي ..

صَمَت قلبه للأبد ، و سيظل قلب صديقتي يصرخ للأبد ،ملعون وطننا الذي يملؤنا عُنوةً بكراهيته ، كل شيء هنا مُثمَّن ، حتى روحك .. علي الوطن أن يُثمِّنَها بعد أن يضع حزَّ السكين على رقبتك ، و عليك أنت أن تشتريها لتفديها ، ليس هناك رعاية لا تحوي أسِرَّة فارغة لكنها محفوظة لكبار رجال الدولة ،أو لمن يملك أن يدفع .. لم يكن والد ليلى يملك من حطام الدنيا سوى ابنة بَارَّة و بيت صغير،و قلب كبير لطالما خفق بالحب و الرحمة و الأمل ..

إننا نكبر في أوطاننا لنتعلم كيف نهرب منها بأقصر الطرق و بأقل الخسائر ، لكن غالِبًا ما تكون خسائرنا فادحة حد الكفران ،

و تراودنا تلك الفكرة المقيتة ألف مرة ،أن الموت في سبيل ذاك الوطن أهون بكثير من العيش في سبيله ، و أن التغنِّي به والهتاف له يصير شيئًا فشيئًا كذبة و وهمًا مزعومًا، أنتغنَّى بترابه الذي يكتم أنفاسنا أم باتِّساعه الذي يسدُّ شراييننا الضيِّقة؟ ، أم بعدله الأعور الذي يرى الفقير بعين ، و يغُضُّ الأخرى عن ذوي المال و السُّلْطَة و النفوذ؟ "

١٤

"لا تُصدِّق أن الإنسان ينمو، لا ..إنه يُولَد فجأة ،كلمة ما في لحظة ما تشقُّ صدره على نبض جديد ، مشهد واضح يطوح به من سقف الطفولة إلى وعر الطريق "..

" غسان كنفاني "

أشتاق إلى طفولتي ، إلى أنا الصغيرة و إلى أختي مرام الصغيرة، كبرنا يا مرام و أكَلَنَا عُمْرُنا و أكل معنا سعادتنا ، ليت الزمان توقف عند لعبة لعبناها سَوِيًّا أو مزحة أغرقتنا بالضحك ، كنا نعود من المدرسة مُشتَعِلتَين بالنشاط كأننا لازلنا في أول اليوم ، نسرع إلى أمي التي لم تكن تغادر المطبخ إلا فيما ندر ، نعبُّ الماء عبًّا حتى نرتوي ثم نتبارى في حكاية قصص يومنا المدرسي المثير ،ما كانت أمي لتنسى أن تعدَّ لنا قطع الفاكهة المثلجة ، نسرقها من بطن المجمد ثم نُسرِع إلى التلفاز لنشاهد مسلسلاتنا المفضلة .

يأتي ميعاد الغداء سريعًا ،لا ننسى أن ننتقد الغداء هذا الصنف مالح ،هذا عادم ، ذاك مللنا منه لأننا أكلناه منذ يومين ، و كانت أمي تحاول إقناعنا أن الطعام شهي فقط علينا أن نتذوق كمية أكبر منه ، و بالفعل كان الطعم يختلف .. ربما هو عقل الأطفال الساذج ..

عجيب ، و أنا أكتب هذا الكلام يمتلئ أنفي برائحة ضَمَّة أمي لما كانت تغمرني بها حين أخبرها بعد عودتي من المدرسة بتفوقي في اختبار ما ، خليط من رائحة الصابون و رائحة الطعام ،رائحة أزكى من أغلى

العطور الفرنسية ، كم من عطر غال يُفرِغ أكثر الجيوب امتلاءً لكنه لا يملأ حتى جيبًا صغيرًا من جيوب الذاكرة ..

أنا مُمْتنَّة للماضي بقدر خوفي مما يحمله المستقبل في طيَّاته ،سفري في زمني نحو الماضي يُذكِّرني أني كنت يوما سعيدة ، أجمل ما في ذكريات الماضي السعيدة أنها سعادة مضمونة، لن تتغير و لن تنقلب في يوم ما إلى شقاء ، عكس سعادة الحاضر المرهونة باختياراتنا ، و سعادة المستقبل المرهونة بالقدر .

١٥

أمي تريدني أن أعود ،لكني لا أريد ، أشعر هنا بالحرية لأمارس طقوس حزني الكبير ،هناك أضطر دوما أن أضحك و ألقي النكات أو على الأقل أبتسم لكي لا تحزن أمي ،و لكي أتجنب أسئلة مثل مالكِ و ما بكِ و ألا زال يُبكيكِ.. ألا زلتِ مرهونة به ، هي لا تدري أني تجاوزته منذ زمن و أن حزني أكبر من حزن فراق ، و أنا لا أدري كيف يمكن أن تفهم يومًا ، و تسمع ذاك الطفل السجين الذي لا يُجِيد الكلام لكنه يبكي بحرقة بداخل ضلوعي ، أمي تروي لي أنه حين كُنْتُ لا زلْتُ في ظلمة رحمها ،في نهار جمعة عجيبة ، غشي الناس دخان أحمر كثيف حجب عنهم ضوء الشمس ،فظنوا أن القيامة قد قامت ،و اشتعل الجميع بالجنون ، و أخذوا يصيحون كالديكة و أخذوا يولولون و يلطمون و يستغفرون الله في حرقة ، و يتخبَّطُون كأنهم عميان وسكارى ، أما هي فأيقظَتْ أبي ، و اختبأَتْ تحت جناحه ،و أخذ هو يطمئنها أن القيامة لم يحن ميقاتها بعد،و وضع يده على بطنها و ابتسم و قرأ "وتضع كل ذات حمل حملها " ..

و أخبرها أن لو كانت هي القيامة لما كان حملها قد ثبت ، و أخذ يقرأ لها من القرآن حتى راح عنها الفزع و اطمأنت و نامت ، واستيقظَتْ و نظرَتْ إلى السماء فوجدَتْها صفحة زرقاء كأن شيئًا لم يكن ، و نظرَتْ إلى الأرض فوجدَتْ الناس قد عادوا لنسيانهم و لهوهم و ضحكهم ، و كوَّرَت يدها على بطنها و نظرَتْ الي الجنين المختبئ في

رحمها و قالت : كيف ينتهي العالم و لم نتقابل أنا و أنت بعد ؟ "! أتمنَّى الآن أنَّا لو لم نتقابل أبدًا .. كُنْتُ أتساءل كيف يا تُرَى كُنْتُ سأفعل لو أني كُنْتُ حاضرة تلك القيامة المُزيَّفَة ،الآن أظن أني لو كُنْتُ حاضرتها لما فزعْتُ و لما اهتممْتُ ،

ليس لطمأنينتي و لكن لأني حقًّا لم أعد أُبالي ،ليس هناك ما أندم عليه ، نعم لم أعبد الله كما ينبغي ولم أومن به كما ينبغي لكن هذا أقصى ما كان يمكن أن أصِل إليه ، بل كنْتُ لأكون راضية لأني تجاوزْتُ كل هذا العمر دون أن أخرج من الحياة وأنا قاتلة نفسي فأكون مع الكافرين المُسعَّرَة بهم الجحيم ، هذا في حدِّ ذاته نجاح ..

سهام الله لا تُخطِئ ..وقوسه لا يبلى و لا ينكسر .. ولا حيلة لنا إلا التسليم والرضا ، أظن أني وجدْتُ أخيرًا طريقة لأتعايش مع عالمي وألمي دون أن أنهار أو أتشظَّى ، قال لي طبيبي ذات جلسة :"كيف ترين الحياة ؟" أجبته بإجابة لم يتوقعها: " الإنسان منذ أن يُولَد يُوضَع في دائرة يدور فيها طيلة حياته حتى يعود إلى نقطة بدايته مرة أخرى وينتهي فيها، وفي هذه الرِّحلة يُكوِّر أملًا وحلمًا و سببًا ويُدحرِجهم أمامه ثم يعدو خلفهم كالأبله كي يستمرَّ ، قد يصِل إليهم أو لا، قد ينظر إلى أعلى فيدعو السماء وقد ينظر إلى الأسفل حيث التراب الذي منه قد نُحِتْ ثم بالنهاية سيبتلعه ، وقد ينظر إلى الخلف ليتعلَّم من أخطائه ،لكن قليلون هم ،قليلون جدًّا من ينظرون إلى جانبيهم ،حيث يقبع المجهول فهذا شأن آخر ..هؤلاء هم الشجعان المملوءون بالفضول ، الذين لا يخشون التيه والخروج من المألوف إلى المجهول ، هؤلاء هم الغرباء المختارون الذين اختارهم الله ليختاروا ،ويسبقوا القدر والمكتوب ،

و يغرقوا بكامل إرادتهم في الضَّلال ليَصِلوا في النهاية إلى الهداية الحقيقية ، لا تلك التي يقرؤها الناس في كتب الدين فيبتلعونها دون تفكير ، ويشعرون دومًا بعدها أن هناك شيئًا خاطئًا ،أن هناك شيئًا ناقِصًا "!

فسألني: " وهل أنتِ من القليل؟ "

قلتُ:" لا ، لا قليل و لا كثير ، أنا لا أراني أنتمي لهذا العالم."

قال:"و لأي عالم تنتمين؟"

قلتُ:"عالم طفولتي ،الذي ظننْتُ يومًا أنَّه سيستمرُّ ،عالم كنْتُ فيه سعيدة !"

ثم علَتْ تنهُّداتي وبكيْتُ بحرقة ، سألني دون أن تتغيَّر نبرته:"لماذا تبكين ؟" ..لم أُجِب ..

أجاب كأني لم أبكِ وكأنه لم يسأل وكأني لم أُجِب: "لكن السعادة قرار داخلي ،جون لينون قال:"السعادة بداخلك فقط وليست مع شخص آخر "..لو أردْتِ أن تكوني سعيدة ستكونين سعيدة ،في عالم طفولتك أو في هذا العالم أو في أي عالم آخر ".

صِحْتُ به فجأة كعاصفة هابَّة:" كذب ،هراء .. أنت وجون لينون حمير .. لم تكن السعادة أبدًا قرارًا داخلِيًّا ،...لطالما كانت السعادة مرهونة بمن هم حولنا ! والحزن كذلك ،إننا نفرح ونتألَّم ونأمل ونقنط بسبب من نعرف ، بسبب من نُحِبُّ ونهتمُّ لأمرهم ،لو كانت السعادة قرارًا داخلِيًّا كما تدَّعِي لكان السجين أسعد الناس ،لكنْتُ أنا أسعد الناس !

ألا تسألني كيف أراك أنت ؟"

قال في خوف:" كيف ترينني أنا؟"

صِحْتُ به:"أراك غبيًّا تحاول أن تظهر بمظهر الذكي الذي فهم الحياة كأنه خاضها غير مَرَّة، لكنك لا تفهم الحياة ولا تفهم نفسك ولا تفهمني و لا تستطيع علاجي ،أنت حمار كبير و أنا حمارة كبيرة و الفرق بيني و بينك أني أعلم أني كذلك!.."

كنْتُ حينها قد وصلْتُ لسقف الخبل ،حملت كومة الكتب والأوراق على مكتبه و أنا أصيح في ذبْحٍ وجنون، ونثرتُها جميعًا إلى أعلى ،وتركْتُه مشدوهًا والأوراق تتساقط عليه وحوله، وغادرْتُ وأنا أتنفَّس بقوَّة كأني كنْتُ في سباق وأغلقْتُ خلفي باب غرفة عزمْتُ حينها ألا أدخلها ثانية أبدًا ... الآن ،لم أعد أتناول أدوية اكتئابي ،وحاولْتُ ألَّا أتناول أدوية الصرع لكن رُحْتُ في نوبات متتالية لا تتوقَّف ، يبدو أني لن أنتهي من أقراصي و كبسولاتي وإبَرِي المهدِّئة حتى أغمض عيني للأبد ، كم أتمنَّى لو كان ذلك قريبًا.

١٦

ترميني في صلب الجحيم ثم لا تنسى أن تسألني " كيف الدنيا " ؟ "!
" غسان كنفاني "

ما أهونك حين تطرق أبوابًا أُغْلِقَت وضاعت مفاتيحها منذ زمن في هوَّة الصمت ..

اليوم ،طرق بابي برسالة في مملكة زوكربرج الزرقاء ،يسألني:"كيف أنت؟".. كيف أنا ؟كيف أنا؟ اليوم تسأل ؟ أتبالي حقا كيف أنا ؟

حسنًا أنا على الحافَّة الأخرى من نسيانك ،أتمرَّغ في نعيم رحيلك.. حين لمع اسمك،لم أمتلئ بكل هذا الأسى الذي ظننْتُني سأمتلئ به، صِرْتَ فجأة تشبه الجميع وصارت كلماتك جامدة و باردة كصخور نائمة في قاع المحيط ،حين لم أجبك وناديْتَني باسمي متبوعًا بنقطتين متجاورتين كما اعتدْتَ ، لم يجرفني الحنين ولم تنتفض يدي إلى لوحة المفاتيح كما اعتدْتُ أن يحدث في كل مرة تحادثني فيها بعد أيام من إهمالي وتركي دون سؤال كأني مسخة ملصوقة بك ، هذه المرة لم تكن أيامًا ، بل عامين ،عامين !

سبعمائة يوم بدونك وتأتي الآن لتسألني عن أحوالي كأني كنت راقدة بين ذراعيك البارحة ، لا يا عزيزي بل كانت امرأة أخرى اسمها زوجتك ، سجنك الذي سجنْتَ روحك به كي تُقنِع نفسك أنك تستحق الأفضل ،لكن يبدو أن الأفضل منذ عامين ليس هو الأفضل الآن ، الأفضل الآن هو تلك المرأة التي تركْتَها حُطامًا يتهاوى في أعماق الخيبة، أتذَكَّر كيف

كانت أمي تنهرني بشدة أنّي لازلتُ أبكيك كطفلة ، وكيف كانت تصيح بي أنك لا تستحقُّ دموعي ،وأن دموعي أغلي من ذلك بكثير ،لكن كما يقولون " قلبي على ولدي ، وقلب ولدي عليّ حجر"!

كنت أصيح بها إن هذا ليس من شأنها ،وأني أهوى العذاب بذكراك ، ثم أكتم دموعي و نشيجي وأختبئ بملاءتي كرضيعة باردة ، وأدَّعِي النوم وأتمنَّى الموت، هكذا كان حُبُّك عذابًا في عذاب كأنَّكَ وُلِدْتَ من رحم جروحي !

كم ظننْتُ أني مغضوب عليّ من رَبِّي بهذا الحبِّ، لكني علِمْتُ أنَّ الله يُذيقنا الخبيث لندرك بعده طعم الطَّيِّب .. نافذة محادثتك تزعجني حقًّا لأنها ذاكرة مقتولة منذ زمن و ممتلئة بالعفن ، عليَّ أن أغلقها وإلى الأبد..

بحَقِّ الله.. سأُلقِي عليك سلام نهايتك ،

و فوق محفَّات التخلِّي ،

سأُشيِّعك..

إلى قبور النسيان !

١٧

كان مشهدًا غير مألوف بالمَرَّة في كُلِّيَّة الطِّب المُوقَّرَة ،
طالب في السنة الثانية ، يجول شوارع الكلية فوق مزلاجة، يذهب بها من مُدَرَّج إلى آخر قافِزًا بها فوق الحواجز الأسمنتية والأرصفة ، لكنه في نظر الأساتذة و كثير من زملائي الطلبة يقفز أيضًا فوق حواجز أخرى خَفِيَّة ، تُسمَّى احترام وتوقير الجامعة ، لكني لا أوافقهم الرأي ، المظاهر ، علينا أن نظهر أمام الجميع بمظهر الرجل الخمسيني مُرتدي البزة الكاملة المُهندَمَة والمربوط عند عنقه بالكارفات والقيم والمبادئ ، بينما ملابسه الداخلية مُمَزَّقَة وجوربه منتن تحت الحذاء الأنيق المُلَمَّع!
أنا و زملائي كنا ننظر لصاحب المِزلاجة باندهاش و إعجاب ،روح حية تنزلق بين جثثنا الكئيبة ، أنا بالذات تمنَّيتُ بشِدَّة لو أستطيع أن أسحب لَوحًا آخر وأُسابِقه،غير عابئة بما سيُقَال عني إني فتاة معدومة الحياء ، أقول ذلك لأني نفسي كنْتُ أتَّهِم زميلاتي اللَّاتي يركبْن الدرَّاجة أو يلعبْن الكرة في ساحة الجامعة بنفس الاتّهام ،وإن كانت دواخلي تشتاق إلى أن أُقلِّدَهن ، وتخبرني دائمًا أنَّهن إنْ كُنَّ مُنعدِمات الحياء فأنا مُنْعَدِمة الحياة ..
كُلِّيتنا تَسرِق بهجتنا رغمًا عنها وعنَّا ،موادنا الثقيلة الكمّ والروح تكتم أنفاسنا ،و وجود كل هذا العدد من الطلبة المتفوقين في نفس المكان و جميعهم يجتمعون على -تقريبًا- نفس الأهداف يخلق روحًا تنافسية مُبالَغًا فيها حدَّ الأنانِيَّة والتوتُّر النفسي والاكتئاب بل حتَّى إلى حدِّ

الجنون، ذاك الفتى تمرَّد على قيود الاكتئاب و دحرج بعضًا من هَمِّه فوق مزلاجة .. لمَّا أراه مرَّة أخرى لن أسحب لوحًا و أُسابقه لكني سأخبره أن رؤيته ينزلق على الإسفلت تملؤني بالبهجة ،سأخبره ألا يُبالِي بما يقول الجميع ،إنهم فقط يحسدونه لأنَّه نفض عن نفسه التُّراب الذي لا يزال يُغطِّيهم ، ويجعلهم جميعًا متشابهين "..!

١٨

الساعة السابعة ،

يدقُّ المُنبِّه فوق رأسي ، مرَّة و الثانية والثالثة حتى خِلْتُ أنه سيصيح أخيرًا باللَّعن والسباب، أُخرِسه و أملأ مُحيطي بالسَّكِينة، أتأمَّل سقف غرفتي بالمدينة الجامعية كأني أراه لأوّل مرّة ، و تزحف الذكرى في غفلة مني أسفل أغطيتي الشتوية، و تزحف يدي في غفلة مني إلى الهاتف أفتح مملكة زوكربرج الزرقاء ، وتعزف أصابعي اسم بريدي وأرقامي السرية، أجمل ما في مملكة زوكربرج هو السرية ، كل الصفحات مُسكَّرَة و كل الأبواب مُغلَقَة ،و الله حليم ستَّار !

أفتح أول ما أفتح صندوق رسائلي،أُسَمِّيه صندوق الكذب، أنظر في الرسالة تلو الرسالة ، خيانات متوازية لا يفصل بينهم سوى خط رفيع لا يمكن اقتحامه ، كلهم أدعوهم حبيبي ،كلهم يدعوني حبيبتي ،و كلهم يظن أنه الوحيد الأحد ، لو كان هناك مِنْ صِدْق في حسابي فهو في تلك الرسائل المُؤرشَفَة التي تحمل نزفي ،تلك الخانة المغلقة على الجحيم والرماد ،الرسائل المعنونة بأسماء حجبناها أو حجبتْنَا ،يكتبها لنا زوكربرج بخط أسود ليرثينا في فواجعنا ..

رسائلنا المؤرشفة، أحاديث ناقصة لم تكتمل و لا يمكن أن تكتمل ، بوَّابات على الجحيم و الرماد، لم أفتحها منذ سنة أو أكثر ، في نصف ساعة يصرخ هاتفي بالجوع، نسيْتُ أن أشحنه بالكهرباء لأني نمت و أنا أكتب عليه ، أتركه ليمتلأ بالكهرباء وأنهض ثقيلة إلى الخلاء ،

أُصلِّي للإله مُزيَّفَة الخشوع ، و أركع ولا أدري ماذا قرأْتُ في قيامي ، و أتشهَّد وما أدري ماذا سألْتُ الله في سجودي، وأُسلِّم ولا أدري.. أصلَّيْتُ أم لم أُصَلِّ !

أرتدي ملابسي المشنوقة فوق شمَّاعتي ، وأحمل حقيبتي الثقيلة بكتبي وأخرج إلى ممرَّات المدينة ثم ساحتها ، ثم الطريق وأنا آمَل ألا أرى أحدًا من معارفي ، لا أريد أن أُزيِّف ابتسامة اليوم ، أنا ممتلئة عن آخري اليوم ..

أهرب من خواء الطريق إلى زحام المترو ، أتدحرج لأعلى فوق السلم المتحرك ، إنه يُذكِّرني بحياتي ،يحملني بكل عزم إلى نهايته وأنا فوقه ، دون أن أتحرَّك عن مكاني خطوة !

يبتلعني زحام عربة النساء ،وبعد قليل يشتعل شجار وأصوات نسائِيَّة حادة في طرف العربة البعيد يضطرّني أن أضع سماعات أذني وأمتلئ بكذب فيروز ..

أخيرًا أنزل .. الكُلِّيَّة غير بعيدة عن المحطَّة ، لكن كتفي بدأ بالتأوُّه من ثقل حقيبتي ، حقيبتي الممتلئة بكتب كثيرة لا أفتح معظمها ، و زجاجة ماء لا أشرب منها ، و هاتفي الثقيل المُعبَّأ بالموسيقى الصَّاخِبة ،وبعض فواكه الطعام و الأوراق البيضاء كتلك التي أُلطِّخها الآن بحبري. كهاربة ، أركض في متاهات الكلية بين قاعات المحاضرات و الفناء و الكافيتريا والمكتبة ،وركني الوحيد المنعزل ،أفعل كل شيء إلا الصَّمْت أو التوقُّف ، صمت لساني وصمت هاتفي يعني أن تعلو أصوات ذكرياتي الحبيسة ، الضوضاء البيضاء التي تقتلني من الداخل .

أهرب وأهرب من سجن أحمله في رأسي، أنا حبيسة رأسي ، وهذه هي الحقيقة !

لكني اليوم لم أَزُرْ كُلَّ كمائني ، كمين منهم كان مُحتَلًّا بهارب آخر ، في رُكني المنعزل كان يجلس مجنون آخر ، يقولون إنه في السنة الرابعة متوسِّط الطول ، بلحية كثَّة بعض الشيء، وعينين واسعتين تُصغِّرهما نظَّارة طِبِيَّة ، ويحفُّهما من الأسفل سواد السَّهَر..

يجلس وحيدًا دائمًا، لا يُبالِي سوى بهاتفه و سمَّاعة أذنه و كتابه ،كتاب مغلق يمسك بكتاب مفتوح ، كلاهما يقرأ الآخر بعشق ونهم.. "

١٩

يا رفيق الدرب

، تاه الدرب مني

رغم جرحي .. سأعني "

" فاروق جويدة "

رائحة دخان تُعَبِّئ المكان..

إنه هو ، يحرق سيجارة و أشياء كبيرة بداخله ، ينظر إلى الأسفل و يرتفع الدخان لأعلى ،و تقطيبة على جبينه تزداد حِدَّة مع كل نفس ، لا أدري هل الدخان الذي يرتفع عاليًا أم أنه هو ينزلق ببطء إلى هوّة تحوي أحزانه. أكره السجائر ، لكن السيجارة كانت تزيده وسامة وجاذبية،كلما لمعت بين إصبعيه وشفتيه تُشعِلني كأني أمسك بطرفها المحترق. بظهر مُنحَنٍ ،وساقين متقاطعتين تنتهيان بحذاء أسود مُلَمَّع وطرفه مُرَمَّد بالرَّماد ، هيئة تمثال إغريقي لفيلسوف جالس. شقَّ صمته بدندنة مفاجأة ،فبدا كأن الكون توقَّف ،صَوْت مطرقة العمال فوق البناية صَمَت ،الشمس أعطت ظهرها للعالم والتفتت نحوه لتَسمَعَه وهو يغزل بشفتيه ولسانه ترنيمة سحر فيروزي ، دقيقة .. دقيقتان ، قرأ شيئًا من القرآن بصوت يذوب له القلب ، ثم فجأة قطع صلاته ،وألقى السيجارة أرضًا ودهسها بحذائه في رفق،ثم نهض وحمل حقيبته ومشى ببطء وثقل كرجل سِتِّيني يُخابِل الموت،

صوته لا زال يرِن في رأسي ، "سهار بعد سهار ..

نهضْتُ وأنا لازِلْتُ غارقة فيه ،التفَتُّ دون وعي إلى مكان جلوسه ، وجدْتُ ورقة مُطبَّقَة بعناية راقدة على مقعده ،تردَّدْتُ، نظرْتُ حولي فلم أرَ أحدًا ، ذهبْتُ بسرعة يحدوني الفضول ،أمسكْتُ الورقة وأرسلْتُ عينًا تُراقِب المحيط ،والعين الأخرى قرَأَتْ ما كُتِب في الورقة:" لو أنَّ المخفر يُجنِّد النساء لقُلْتُ أنَّكِ من نساء المخبرة !
رجاءً، اعتقيني من نظراتك !"

٢٠

إن كل قصة مع رجل ترسو بك على شاطئ المفاجأة "

" أحلام مستغانمي "

قدماي انغرستا فجأة ، لم أعُدْ أقوى على الحراك

أردْتُ أن أثني مفاصلي وأجلس ،لكنها كانت مُتيبِّسَة كالحجر ،أردْتُ أن أعدو مُبتعِدة عن المكان برمّته لكن قدماي انغرستا في رمل خجلي ،تلفَّتُّ حولي ،لازال المكان خالِيًا ،بصعوبة أدرْتُ جسدي لأسِير مبتعدة ، ففوجئْتُ به أمامي ، تفصلني عنه فقط خطوة ،ظهر فجأة كعفريت خرج لتوّه من الجحيم ..

جبهته ملساء إلا من تجعيدة صغيرة بين عينيه ،كانت مرَّتي الأولى التي أرى عينيه بهذا القرب ، كانتا واسعتين و بأهداب طويلة ،مفتوحتين على اتساعهما لِتُظهِرا قزَحِيَّة سوداء كالفحم ،و بياض عينيه قد انقلب حَمَارًا كأنهما بركتا دم ، أنفاسه المشتعلة بلهيب السجائر كانت تلفح وجهي ، و ثغره الواسع يبتسم نصف ابتسامة ، كان يبدو طويلًا ،واثِقًا، جريئًا ،و لا مُبالِيًا..أما أنا فأعلم كيف كنْتُ وإن لم أَرَني ، كنت مشدوهة ،محملقة العينين و شاحبة الوجه ، أحتضن كتبي بقوة لأختبئ فيها ، و روحي تريد الهرب من جسدي المفلوج لكن بلا جدوى ..

ثوانٍ مرَّتْ قبل أن تشتعل أعصابي بالكهرباء فينتفض جسدي و تدبّ الحياة في قدمَيّ فتتحركان ،و تتسابقان أيهما تهرب من الموقف أوَّلًا ، تحملانني مبتعدة ، خطوة ، اثنتين ،ثلاثة ، ثم تشتعل أعصاب يدي بالنبضات هي الأخرى ، ترتجفان بقوة فيسقط كتاب التشريح أرضًا ،

لم تطعني قدماي كي أتوقَّف ، بل أسرعتا نحو المخرج كأني أهرب من الجحيم..

كل ليلة ، تُلهِبني الأوراق فأثور على كتماني ، الساعة الآن الثانية صباحًا ، ويبدو أن جفنيَّ لن يلتقيا الليلة ،أفكاري و تساؤلاتي تَحُول بينهما ، كم كُنْتُ حمقاء اليوم ، كان ينبغي عليَّ أن أُجيبه بكل انفعلاتي أنَّ ما كتبه في ورقته لا يجوز ،ما كان لي أن أقف هكذا أمامه كالبلهاء ، سأذهب في الصباح إلى مكان جلوسه الذي كان مكاني و أعيد احتلاله ،هذا قرار، لهذا أحب الكتابة ، كثيرًا ما تحسِم نزاعاتي و تُنهي حيرتي ،ربما يأتيني النوم الآن .

٢١

"لو أستطيع،مسسْتُ قلبك فأحسسْتُ بك،أو دخلْتُ رأسك فعرفْتُ الكثير"..!

" يوسف زيدان "

الأشياء كلها بداخلي كانت تسير في اتجاهات متعاكسة

كنت أريد أن أواجهه، وأخاف من وهج اللِّقاء ،لا أستطيع أن أتنبَّأ بأجوبته و ردود أفعاله ، الأمر يُربِكني حدَّ التعرُّق ،لكني ذهبْتُ إلى مكاني باكِرًا ،لم أجده ، لكني وجدْتُ كتابي ، التقطتُه و ذهبْتُ مُسرِعة ،و في قاعة المحاضرات فتحْتُه على أمل لا إرادي مني أن أجد في طيَّاته رسالة منه .. و عند آخر صفحة مُلطَّخَة بكتابتي وخطوطي و ألواني كانت راقدة ورقة بيضاء تحمل خطَّه المُبَعثَر، والثَّائر على استقامة الخط ، تمامًا مثله !

" على بعد خطوة ،

على شفا قبلة ،

على شوق ضمة ،

'- وقفْتُ قبالتك ،

المرة القادمة ، سأدهس المسافات ، وأحتلُّك كما احتللْتُ مكانك، فاحذري!"

"لا تغضب من أحد ، فأنت أسوأ كثيرًا مما تعتقد "

" أنيس منصور "

حسنًا ..هذه كانت إحدى المحاضرات التي أحضرها وأنا غائبة ، فجأة بدَتْ بقية صفحات الكتاب بيضاء و رأيْتُ الأستاذ يُحرِّك فاه دون أن أسمع له صوتًا كأنه أبكم أو كأني صمَّاء..

كيف كان جريئًا هكذا ، في حضوره وكتابته ،ألم يخشَ أن يقع الكتاب في يدٍ غير يدي؟!

ربما كانت خطة منه كي يستفِزَّ فيّ أنوثتي و عنادي ،و يُشعِل قلمي بردود يجب أن تُقال..كل شيء يخبرني بوقاحة أنه إما فاجر ، أو مجنون ،لكن خارج منطق الأشياء ، أقول إنه روح سُلِّطَتْ على نفسها لتتعذَّب ،و إن ما أراه ليس إنسانًا و لكن بقايا إنسان ..

لن أعطيه ما يريد ، و لن يجد بالغد رسالة كما يحلم ، سأراقبه من بعيد لكن في أماكنه هو ، في قاعة محاضراته و في تجمُّعات زملائه، و في لقاءاته الخفيَّة مع الشيطان ..

٢٢

اليوم إني وحيد وحدة قاتلة ، و البارحة .. وحيد أيضًا .. وما قبل البارحة إني أيضًا كنت وحيدًا ، و هكذا أعيش حياتي مصارعًا كل ليلة روتين حياتي المقيت !"

(سارتر)

هذا المساء ، لا أحمل مزاجًا للكتابة ،الساعة تئِنُّ بتسع دقَّات ،زميلتي " مِنَّة " تجلس على الكرسي فتبدو ك (لم)، "ليلى" تجلس على سريرها ثانية ركبتيها إلى صدرها فتبدو ك(لا) ،وبين نفي ونفي أفترش أنا الأرض كلاجئة مَنفِيَّة ،أضع كتابين أمامي و رواية ،كلما هممت أن أفتح أحدهم تخنقني كآبتي التي كلما خمدت تشتعل بفاجعة جديدة ، آخرها كان البارحة ، ليس أمامي سوى أن أكتبها لعل حريقًا في صدري يخمد ، دموعي لا تكفُّ عن الانهمار..

في مكاني المُحْتَل ،كنْتُ جالسة بعد محاضراتي ،لم يكن من أحد في محيط المكان ، بدأت أشعر بنداءات النوبة ،نظرْتُ حولي و تأكدت أني بمفردي ، فاطمأنَّيْتُ ،ثم بدأ كل شيء يفور في داخلي بينما أخذ كل شيء حولي في الذوبان ، و شُلَّ جسدي وانحبسَتْ روحي بداخله، ثم انقطع بي الزمن ، ولم يتصل إلا بين عيني غريمي ومُحتَلِّ أمكنتي ،خُيِّل إليِ أنه كان ينظر إليِ بنظرة شفقة و انكسار لم أظن يومًا أن لمثل هاتين العينين المخيفتين أن تحملاها ،وأنه كان يضع إحدى ذراعيه أسفل رأسي و باليد الأخرى يُسدِل ثوبي على ساقي التي صارت عارية

حتى منبتها، ثم غاب عني وعيي مرَّة أخرى ،و غططْتُ في نوم عميق، لم أفق منه إلى بعد ما يربو عن الساعة ، كان اللون الأبيض يطغي على كل شيء .. السرير أبيض الفراش أبيض ، و الشاب الذي يمسك بيدي ليعد نبضي كان مُتلحِّفًا بالأبيض ، كنْتُ في مشفى الجامعة ، يحيطني أربعٌ من زميلاتي ، يناديني باسمي و يربتْنَ برفق على خدي ، غمرهنَّ الارتياح لما فتحْتُ عيني و أدرْتُهما بينهنَّ ، كان لساني يؤلمني وطعم الدَّم يملأ فمي فعلمْتُ أني عضضْتُ لساني أثناء نوبتي ، كان جسدي كله رخوًا كأنه بلا عظام أو عصب مددْتُ يدي إلى رأسي لأتأكَّد أن حجابي بعد هنا ، مدَّتْ ليلى يديها إلى طرفه تجذبه للأمام و لأسفل ، ثم قبَّلتْني على جبيني قبلة كقبلة أمي ،تذكَّرْتُ ما رأيْتُ و أنا بين النوم واليقظة ،تذكرت وجهه ،وعينيه ، ويده التي تحاول أن تغطيني ،انتفضَتْ يدي نحو الملائة التي تُغطِّيني وشددْتُها حولي ،ثم انفجرْتُ بالبكاء ،لم أكن أدري لم كنْتُ أبكي تحديدًا ، لانكشاف عورة جسدي ، أم لانكشاف عورة عقلي المريض ، أم لانكشافهما معا ، و أمامه هو بالتحديد ، .. لكني تمنَّيْتُ لو كانت السماء حين باغتتني النوبة قد انشقَّتْ من فوقي وهوت علي ، أو أن الأرض انشقَّت من تحتي فابتلعتْني ، أو أن نومي بعد النوبة كان نومًا أبديًّا فلا نوبات ولا فواجع ،ولا انكشاف لعورة جسدي مرَّة أخرى إلا أمام مُغسِّلتي، لكني ها أنا ذا ، بين (لم) مِنَّة و (لا)ليلى ، أقف كصرخة " أاااااه " طويلة قد ضاعت هاؤها ، فهي لا تنتهي .

٢٣

" إن الصمت هو صراخ من النوع نفسه ،أكثر عُمْقًا ،وأكثر لياقة بكرامة الإنسان ".

" غسان كنفاني "

كل شيء يبدو عادِيًّا اليوم ،ومنذ بدايته وأنا أشعر أني مُتعادِلَة ،غير مجذوبة لشيء ولا نافرة من شيء ،النهارات العادية أفضل من النهارات السيِّئة ،والنهارات السيِّئة أفضل من النهارات التي تستوحش فيها ذاكرتي وتطغي على كل حواسي وتجبرني على الهروب تحت غطائي أو في ملابس الخروج ،وأخرج دون أن أدري تحديدًا إلى أين..

غريمي الوحيد ، وعدوّ راحتي والحجر الذي يُقلقِل سكون مائي ، لم أره منذ أسبوع ، تقريبًا لم أرَ أحدًا منذ أسبوع ،منذ حادثتي وأنا متقوقعة في سريري أو شرفة غرفتي ،حتى إني لم أسال زميلاتي عما حدث بالضبط ، وهل كان غريمي يحملني حقًّا ويُغطِّيني أم إنها كانت محض هلاوس من عقلي الآخذ في الانطفاء. حين عاد لي وعيي في المشفى كنت على يقين أنه كان هناك ،لكن الآن عقلي يخبرني أنه لم يكن هناك ،لا يمكن أن يحمل هذا الوجه المتخشِّب كل هذه العاطفة، ومن أجل فتاة لا تعني له سوى أنها كانت تسكن مكانه المُفضَّل قبله ، والآن هي جارته في المذاكرة ،تلك الفتاة التي تسير في كل مكان مستقيمة الظهر مرفوعة الرأس في كبرياء ،نظرات الثقة تخترق

عدسات نظاراتها الشمسية المعتمة ،لكنها هوت أمامه كبناية متهالكة ،وارتعدت كل أطرافها كمن أصابَتْها صاعقة أو لعنة من السماء ،
وسال لعابها ودمها على يده ، لو كان هو هناك حقا ،وكانت تلك النظرة تعلو وجهه لكانت هي بالتأكيد نظرة شفقة -لا أكثر- لتلك الصريعة المسكينة..
أكثر ما يذبحني أن لقاءاتنا صارَتْ الآن مستحيلة ، لن أتحمَّل أن يراني فتطير نظرة شفقة من عينيه إلى عيني ، لن أتحمل أن أراه فأذكر أنه رأى عورة جسدي وعوار عقلي ،غدًا سأذهب إلى مكاني مُتعشِّمة في غيابه.

٢٤

"فانتظار الساعات كانتظار السنين ، حينما تفقد روعة الخلود وبهجتها و وهجها"

(سارتر)

لم أعد أدري هل أقاتل كي أبقى أم أني أبقى كي أقاتل ..
مُجهَدَة من الحياة كأني سابحة عكس تيَّار لا أراه ، وقد تفسَّخَتْ كل جذوع الأمل في يدي ، تعبْتُ من أوراقي التي لا تمِلُّ أن تسألني عما بي فلا أعطيها أجوبة تشبعها ،بل كلمات موازية للحقيقة الضائعة فتستفز جوعها أكثر ، و أكتب لها أكثر ، حتى ينفد بياضها بينما تظلُّ متاهات نفسي ممتلئة بالسواد ..و منها يطفح على عيني فأرى الدنيا قاتمة كأنها ليل بهيم لا نهار له ، كل هذا ، ولا أدري لماذا ، ولم أعد أهتم لماذا ،حتى طبيبي قد فوَّتُ ميعاد جلستين معه ،وصرْتُ أتناول أدويته وقت ما أريد و أتركها وقت ما أريد ، هل أقف على حافة الانهيار؟ فمتى ستدفعني آخر خيباتي إلى عمق الفناء؟

يا غريمي ، لم تأتِ اليوم ، كنْتُ لا أريد أن أجدك هناك ، لكن شيء بداخلي قد شعر بالخواء لما وجدْتُ مكاني فارغًا منك ،تلك الأشياء التي تُشعِرك بالشيء ونقيضه يجب أن نتحاشاها قدر الإمكان لأننا لا نملك اتجاهها قرارًا ، و ما لا نملك اتجاهه قرارًا لا نستطيع أن نكتب له نهاية ، وما لا نملك أن نُنهيه فإنه يملك أن يُنهينا..

لم تكن هناك ،لكن كان بعض منك ينتظرني ، بالصدفة لمحْتُ وأنا راحلة طرف ورقة مُخبَّأَة بعناية في شقٍّ من الحائط خلف مكاننا ، لم أتردَّد هذه المرَّة ، بل نظرْتُ إلى طريقي وتابعْتُ المسير مبتعدة ،لن أتحمَّل مفاجأة أخرى منك فأجدك أمامي أو فوقي أو أسفل مني ، وربما لن تتحمَّل أنت مفاجأتي حين ألكمك أو أركلك بعد أن أقرأ رسالتك التي لابد وأنها تحمل كل وسيلة لإحراجي. يا رجل المفاجآت والصدفة .."

٢٥

"الحب الحقيقي :أن تحب الشخص الوحيد القادر على أن يجعلك تعيسًا !"

(أنيس منصور)

تتبعْتُك ،كما توقَّعْت ،خطواتك غير مُتوقَّعَة ،وطرقك المتعاكسة لا يمكن أن تلتقي في شخص. تَصِل مُتأخِّرًا عن مواعيدك ،لا تحمِل حقيبة أو كتابًا ،ملابسك ليست بالأنيقة ولا القبيحة ،لكن ألوانها متماشية بقدر لا بأس به ،وفضفاضة بقدر ملحوظ ، كأنها كانت يومًا تلائم جسدك لكنك فقدْتَ وزنًا منذ وقت قريب. معصمك الأيسر لا يخلو أبدًا من ساعة بُنِّيَّة أو سوداء ،شعرك الناعم مِطواع للريح ، تبعثره وترفعه ثم تتركه لينسدل على جبهتك فتبدو كطفل وسيم. تسير وحيدًا ، لا تنظر إلى أحد ،و لا تلقي السلام على أحد ،لا تنظر سوى إلى ضيق الطريق أمامك وطول المباني بجوارك و اتساع السماء فوقك ، كأنك لا تنتمي إلى هذا العالم و غير معنيٍ به . تشتري كوبًا من الشاي ،ثلاث ملاعق من السكر ،ثم تشنق فتلة الشاي على طرف الملعقة وتغمسها في الماء الساخن ثلاث غمسات،حتى ينصبغ باللون القاتم ، ثم ترميها بعيدًا.

في ركني المنعزل تجلس وتحتسيه ببطء ،وتُخرِج من جيبك ورقة وقلمًا ، تمسكه من منتصفه ثم تكتب جُمَلًا ، ثم قبل أن تنهض ،تطوي الورقة حول قلمك وتضعهما في جيبك مرة أخرى ، وإذا لم يكن هناك ورقة

قطفْتَ من الشجرة بجوارك ورقات و كتبْتَ عليها أهازيجك ،وتركْتَها لتذروها الرياح ، حين حاولْتُ أن أقرأ ما كُتِب عليها عرفْتُ شيئًا واحدًا.. أن خطَّك سيِّئ للغاية ! لابُدَّ وأنك قد وجدْتَ مشقَّة كبيرة كي تكتب لي تلك الورقة التي تركْتَها خلفك لكي تكون مقروءة ، أشكرك على صنيعك ! ثم تنهض مع دقَّات الساعة التاسعة ، و تذهب إلى فرع البنك الموجود في الكلية ، تغيب لربع ساعة ثم تخرج ، وتذهب إلى المستشفى ، في ربع ساعة تذهب لزيارة مريضة راقدة على سريرها قد أقعدها المرض ،، تحدثها قليلًا دون أن تبتسم ، ثم تُدخِل يدك في جيبك فتخرج بورقة مالية تدسُّها أسفل وسادتها ثم تُودِّعها في صمت و تذهب ،ثم تذهب إلى قاعة محاضراتك .

البارحة ،سبقْتُك إلى قاعة محاضراتك التي كانت مزدحمة وممتلئة عن آخرها بالطلاب الجالسين والواقفين ،فتحْتَ الباب بكل ثقة رغم أنك كنت متأخِّرًا عن الميعاد بنصف الساعة ، توقف الأستاذ عن الشرح و انقطع كل صوت ،إلا صوت قدميك الواثقتين و هما يخترقان الصمت ، نحو منتصف المُدرَّج ،وقفْتَ بإزاء صفِّ المقاعد المتوسط للقاعة ، خرج الطلاب من الصف تباعًا ليفسحوا لك طريقًا. سِرْتَ بكل هدوء نحو مقعدك الذي لاحظْتُ فقط حينها أنه كان فارغًا بغرابة ،ينتظرك بفراغه وسط كل هذا الزحام ، و لما اطمأن الأستاذ أنك قد جلست ، تابع الحديث كأنه لم يقطعه ، لكنه كان أكثر توتُّرًا ،وبدأت الحروف تتناثر من بين شفتيه ، و يسرق من حين لآخر نظرة نحو ذاك الطالب المُلَفَّح بالهيبة والغموض ،كان الأستاذ بين حين و آخر يسأل سؤالًا فلا يجيب أحد ، أو يجيبون أجوبة خاطئة أو قريبة

من الصحة لكن دون أن تصيبها في كبدها. وانتهت المحاضرة ، ونهض الجميع ومرُّوا بجوارك نحو الباب دون أن يُحدِّثوك كأنك صخرة صماء قابعة وسط النهر ،ثم لما فرغت القاعة من كل شخص ،وفرغ جمع الطلاب المُتحلِّق حول الأستاذ ليسلخوه بالأسئلة حول المحاضرة، لملم الأستاذ حاجياته ، وسار نحو الباب حين فاجأْتَه بسؤال وأنت تنظر أمامك نحو اللَّوحة البيضاء، بصوت كسير قلت " كانت لتجيب جميع أسئلتك العبقرية هذه ، أليس
كذلك ؟ "

نظر نحوك ثم قال :" بلى ، بلى يا يحيى " ثم غادر ، وبقى أنت ، وخواء القاعة ، و .. و أنا !

كنت جالسة بنهاية المدرج ، أخذني حضورك و نسيت أني هنا معك ، في قاعة واحدة شبه مغلقة ، هل يمكن أن تكون الفريسة بهذا الغباء حتى تخنق نفسها بيد صيادها؟ الآن ألتمس العُذْر لكل فأر اختبأ من القط داخل مصيدة فئران ، ولكل غزالة حاولت الفرار من تمساح يطاردها على الشاطئ بالقفز في البحيرة التي خرج منها..

حملْتُ حقيبتي بسرعة وهممْتُ بالخروج ، لمَّا سمعْتُ صوتك الأجش يخرج من زاوية مُتهدِّمة في قلبك و أنت لا تزال تنظر إلى اللوحة البيضاء ،تُردِّد قول شيكسبير: " إن الحزن يهمس في القلب حتى يُحطِّمه "!

إن الحزن يهمس في القلب حتى يُحطِّمه!". ثم وضعْتَ يدك في جيب سترتك ،وأخرجْتَ قنِّينة صغيرة ممتلئة بسائل بلون الدَّمّ ، و أخذت

تعُبُّ منها عبًّا ، ثم أغلقْتَها بعناية و أعدْتَها إلى جيبك ، ثم قلْت:" ها هي الكأس قد شربْتُها ،ألا تأتين ؟!".

هناك سحر أسود في صوته، حروفه اخترقتني إلى أبعد زوايا روحي ، لملمْتُ بعثرتي بسرعة ،وهربْتُ نحو الباب. أيها الواثق الحزين ،أيها الشيطان الملاك ،كيف لي أن أتحمَّل مواجهتك؟

٢٦

"اللهم اكفني شر نزوات مزاجي ، أما نزوات عقلي فانا كفيل بها !"
(مصطفى محمود)

المطر يهطل بشدة اليوم، اليوم نهاية مارس، الشتاء الحنون يودِّعنا بالدّموع، و أودِّعه بالدّموع. رغم برودته إلا إنه أكثر دفئًا و حميميَّة من الصيف الملتهب..

الشتاء مصنع لقصص حب جميلة يحترق معظمها مع اشتعال شمس أغسطس، إنه الانتخاب الطبيعي، الحب الذي ينجو للشتاء التالي هو الحب القويّ الذي يستحقُّ أن يستمر، ويستحقّ أن نقاتل من أجله تحت شمس الصيف التالي و الذي يليه و الذي يليه بشراسة أكثر..

خرجْتُ من القاعة إذن، أفكر في جملتك للأستاذ... من كنْتَ تعني بها يا ترى؟ و القنينة التي شربت منها غير مُبالٍ أني أراك، أي بئر بداخلك كان يسكنه يوسف حبك و تحاول الآن أن تملأ فراغه بالخمر؟

في غفلة مني، كان يحدوني قدري نحو رسالتك المُعلَّقة بيني و بينك في ركننا الخفي، نزعْتُها من الشقّ و خبَّأْتُها في جيبي لأقرأها حين أعود إلى غرفتي،لكني لم أستطع أن أغلب فضولي،جلسْتُ في ركننا و قرأْت:

" شفتاك جميلتان ؟هل تجيدين التقبيل؟ هل كان يجيد هو التقبيل ؟ أم إنه كان خائنًا عفيفًا؟ "

تبًّا لشيطاني دومًا يسبقني بالكلمات، عذرًا لوقاحتي في أول رسالة جادَّة بيننا لكني لا أستطيع أن أمحو ما كتبْتُ، لا أملك الآن سوى تلك الورقة و سأضطر للشطب، والشطب سيفسد الورقة، لابد أن تظل

جميلة كمن ستتسلمها...

مكانك، الذي تظنين أني احتللْتُه، كان مكاني من قبل أن تلتحقي بجامعتنا بسبع سنوات، لكني أتيْتُ ذات صباح و وجدْتُ تلك الوردة المغلقة، في يومها الأول في الدراسة وهي تبحث عن مكان ظليل و مختبئ كي تحتمي من أشعة الشمس، ثم وجدَتْ مكاني فجلسَتْ فيه، لم أُرِدْ أن أُزعجها في يومها الأول، فتركْتُها هناك، وفي اليوم التالي كانت الوردة الصغيرة تحتلُّ المكان أيضًا، فقرَّرْتُ أنه ربما علي أن أبحث عن مكان آخر...

سأخبرك عني ما أنا متأكد منه، إني بالسنة الرابعة، مُتأخِّر عن صفِّي بأربع سنوات، أصدقائي ثلاثة: قنينة الخمر وعلبة سجائري وقدَّاحتي .أحب النساء لكني لا أمسُّهن إلا برضاهن. لا أحب الكذب ولا الكذَّابين .أحب الكلاب وأكره القطط و العصافير و الأطفال، كما أني تَعِس، تَعِس لدرجة محاولة الانتحار سبع مرات، وفاشل لدرجة أني لازلتُ بعد هنا...

أتطلَّع إلى رسالتك التي ستَسُبِّيني فيها لوقاحتي، غير مهم، المهم أن تكتبي لي في أقرب وقت، ما دمْتِ لا تريدين لقاءات حية، وما دمْتُ أنا لا أملك حسابًا إلكترونيًّا على أي من شبكات التواصل، فلتكن إذن لقاءاتنا حبريَّة.

يا حلوتي لا تتأخري عن مراسلتي، لازال لدى شيطاني الكثير ليخبرك به كما إنه مُتلهِّف أن يعرف:هل تجيدين التقبيل ؟؟ "

يحيى

يموت *

٢٧

"الإنسان معجزة التناقضات"

(مصطفى محمود)

لمَّا كنْتُ أفتح رسالته كان هناك شيء ما يتفتَّح بداخلي. لم أكن خائفة، لكن تغشَّتْني سكينة كأني أتسلَّم الوحي لأول مرة. كان الخط سيِّئًا مُتمرِّدًا على السطر، لكني قرأتُها بسلاسة ويسر كأني كنْتُ أجاوره هو وشيطانه حين كانا يكتبانها. قرأتُها و طويْتُها على أسئلتي التي تغلي، عن هذا الرجل المخلوق من التناقضات والغموض، وعني؛ لماذا أنا مهتمَّة به لهذه الدرجة؟ وكيف أفكر الآن بعد أن قرأْتُ رسالته التي يسألني فيها عن قدرتي على التقبيل أن أجيبه برسالة؟ ربما لأنه ليس كأحد عرفْتُه من قبل، ربما لأني أرى فيه أشياء تشبهني، ربما لأنه يحتاج لمساعدة، أو لأنه الشيء الأحد الذي يثير فضولي في هذا العالم الفسيح الضيِّق...

قلمي يريد الرد، وأنا أطيع قلمي... وهذه كانت رسالتي:

"أتدري أن كل قصة ينقصها قصة، وفي عمق الحكاية دومًا تنام حكاية؟

كيف قتل (زرادشت) نفسه في كهف منعزل بعدما ملأ الدنيا نورًا و أملًا وعلمًا؟ وكيف أن (مارلين مونرو) كانت تحوي في جسدها المنحوت كتمثال إغريقي روحًا مُعَذَّبَة بالقدر الذي يدفعها أن تُدْمِن المُخدِّرات وتنتحر بجرعة زائدة من المُخدِّر وهي في أوج مجدها؟ قصتك

أنت أيضًا مبتورة؛ هناك امرأة تسكنك بالألم والحسرة كما يسكنني رجل بالرَّحيل المُوجِع. لا أبالي بأصدقاء السوء خاصَّتك وخلواتك العربديَّة، ولكني قد أبالي بنزفك وأنقاضك التي لا تستطيع إزالتها، كما إني واثقة أنه لا أنت ولا شيطانك تباليان بمهارتي في التقبيل، على أي حال أخْبِر شيطانك أن فمًا يُقبِّل فم قنينة الخمر لا يمكن أن يُحدِّث فمي ، فما بالك بتقبيله !

اكتُبْ إليّ نزفك، لا تكتب لي لغة كاللغة، اكتُبْ لي حروفًا بفتحات جروحك، والضمَّات التي حُرِمْتَ منها، والكسرات التي كسرَتْك، و حالت بينك وبين الحياة، وتجذبك كل يوم خطوة بخطوة نحو الموت.

خبِّرْني عن خيباتك التي تملأ لك كل يوم كأس الخمر وتُشعل لك السيجارة، وسأخبرك أنا ما ملأتْني به سنين عمري، وما فرَّغتْني منه وما لا يزال عالِقًا بأعماقي فيؤلمني كلما انزويْتُ على نفسي...

أتطلَّع لرسائلك القادمة .

(شمس)

٢٨

أحيانًا أُفكِّر أنه لربما يجب علينا أن نراجع كل تلك المُسلَّمات التي غرقنا فيها ..

اليوم كانت امرأة أربعينية تبكي عند مدخل المشفى وتصرخ:"... كيف يا بوي تموت في الحمام ، وأنت كنت تُصَلّي وتقرأ القرءان وتعرف ربنا .. كنت تعرف ربنا يا بوي طول حياتك لكن ربنا في النهاية ما عرفك "!

الله لا يجهل،لكنه يتجاهل...الله لا ينسى لكنه قد يتناسى، وفي التجاهل والتناسي يموت أبرياء... أطفال ونساء، وينقطع الرجاء من قلب كان يومًا سليمًا فصار كليمًا، وتنطفئ الكلمات فوق لسان كان يومًا لاهِجًا بالدُّعاء...

إننا نؤمن بالله دون أن نعرف حقًّا ما الله، ونؤمن بالشيطان لكننا لا ندري حقًّا ما الشيطان، وندَّعِي حب الأول وندَّعِي كراهية الآخر دون أن نشعر بذلك حقًّا من دواخلنا، لذلك لا يمكن لأيٍ منا الوصول، ولا يمكن للكلمات أن تتعدَّى حناجرنا لتَصِل قلوب البشر، ولا يمكن لكلمات البشر أن تتجاوز أسماعنا إلى قلوبنا...

حواسُّنا، ألسنتنا وآذاننا جعلتْنا صُمًّا وبُكْمًا، لأننا استغنينا بهما عن قلوبنا التي تحوى أغلي الحواس وأسماها:الإحساس...التصديق و الإيمان !

لم أعد أمتلك كل هذه الثقة التي كنْتُ أمتلكها وأنا صغيرة، أشتاق إلى طفولتي متى كانت كل الأشياء بيضاء وسوداء، ولا وجود لمناطق الريب و الاحتمال الرماديَّة التي احتلتني وأنا كبيرة. كنْتُ واثقة أن أبي

القدير سيحميني من أيّة أذى، وأن أمي الرحيمة ستحيا لي للأبد، وأن الله يحبني ويصنعني على عينه، كنْتُ قِدِّيسة ووَلِيَّة أكاد من شدة مراقبتي للملَكَين فوق كَتِفَيّ كأني يتهيَّأ لي أني أراهما رأي العين، وأسمع حفَّ قلميهما على صحيفتيهما وهما يكتبان كل حسنة وخطيئة. كنْتُ كلما أذنبْتُ ذنبًا أغمض عيني وأصغي سمع قلبي، وأتهيَّأ مَلَك اليمين وهو يستعطف مَلَك اليسار ألا يكتب خطيئتي لربما أتوب، فأفتح عيني فجأة كالعائد لتوه من رؤية كونية، وأستغفر الله سبعين مرة، ثم يغمرني الارتياح وأناجي الله في صمت أن يقبضني الآن وأنا طاهرة مُنقَّاة بتوبتي. ولمَّا لا يستجيب، أظن بالله خيرًا أنْ لعله أخَّرَني لحكمة، لثواب عظيم ينتظرني أو لسعادة مُؤجَّلة لم أتحصَّل عليها بعد. لكن لا أدري لِمَ أشعر دومًا أنه ما كان ينتظرني في مفارق حياتي سوى الشقاء... حتى في أكثر اللحظات إشراقًا، وحتى حين يصطفّ أمامي طابور من أسباب البهجة فإني أشيح البصر عنها، ولا أرى سوى الحزن والكآبة والألم. هل أنا شقيَّة بجحودي وقِلَّة رضاي؟ لابُدَّ أن الله يَكرهني والملائكة تكرهني، لكني لاحيلة لي بالأمر. يعلم الله كم جاهدْتُ أنْ أدري لمرضي علاجًا، لكني بُؤْتُ في كل محاولة بالفشل الذريع، وسلَّمْتُ بالاستسلام ، وتركْتُ ناصيتي بيد الله يلقي بها حيث يريد فلم أعد أبالي"..

٢٩

كل هذه الأصوات ، كل هذه الروائح تصيبني بالدوار..
الشارع المزدحم بالبشر و السيارات والمشتعل بالمشاجرات والصياح، والكل يُدَلِّل بما عنده من بضاعة.. الفكهاني وبائع الملابس و بائع الذرة وبائع كروت شحن الهاتف و الشحَّاذ يُدَلِّل على فقره عبر رُقَع ملابسه ،والشابَّة الجميلة تُدلِّل من رُقَع ملابسها على جسدها الفائر، والشاب القوي يُدلِّل على عضلات ذراعه التي فتلتها أثقال صالة الألعاب عبر قميصه الذي شمَّر أكمامه حتى كتفيه، وتلك المرأة تُدلِّل على ابنتها التي يطاردها البوار، فحزَّمَتْها بأضيق الملابس و طلَتْ وجهها بالمساحيق واصطحبَتْها في كل مكان لكي تُوقِع رَجُلًا في شباك الرغبة فيها فيَفُكَّ نحسها ولعنتها ويتزوجها. وذاك الرجل الذي اشترى لتوه المرسيدس يكاد يخرق بطن المِقْوَد أمامه و آذان المارَّة حوله من فرط إطلاقه لبوق سيارته ليرى الناس الألف ألف جنيهٍ التي تحمل مؤخِّرته! كلٌّ يعرض بضاعته خشية كسادها، في زمان إذا كسَدْتَ فيه انتهيْتَ، ورُمِيْتَ إلى حاوية المهملات البشريَّة المُكتَظَّة بالضعفاء والبائرات والسمينات والقبيحات والعجزة واليتامى والمساكين...

كل هذه الكلمات والصور في مملكة زوكربرج الزرقاء، والرسائل التي لا تصل، وتلك التي تصل ولا تُقرَأ وتلك التي تُقرَأ ولا يُرَدّ عليها، كل هؤلاء العابرين الذين يملؤون أنانيتهم بإعجاب وتعليقات من يعرفونهم ولا يعرفونهم ، ذاك العالم الإلكتروني الفسيح الذي نفترض فوقه كل شيء، نفترض وجودًا وحبًّا ومجدًا وحقيقة، وهو وهم كبير، وملهاة

تلهينا عن بشاعة الواقع الذي يخنقنا كل يوم بقسوة...

كل هذا التلاهي والشرود يخنقني ، كل تلك المتاهات التي تبتلعني في غفلة مني و يهُبُّ فيها الزمن كعاصفة لا تهدأ حتى تكنس عمري قبل الأوان بأوان، قبل أن أجد الهداية والصدق والحب، قبل أن ألمس أحلامي السرابِيَّة الهاربة...

كيف أنجو منها وأسمو بروحي فوق الحزن والقلق والصخب، و أنام ولو ليلة واحدة في عمق السكينة حاضنة حلمًا قد تحقَّق؟

هذه الضوضاء، وهذا العبث يجعلني أغلِي، وسط هذا الزحام أتمنَّى لو أتقوقع في ركن وأصمّ أذني بيدي، وأغمض عيني وأبكي بحرقة، وأصرخ حتى يجبرهم صراخي على الصمت والتوقف، أسألكم... أيها التائهون الضالون، كيف تجعلون كل هذا الشقاء دربًا، وكيف تَصِلُون بالنهاية ؟؟

٣٠

اكتشفْتُ أني النصف من كل شيء ولم أكن أبدًا شيئًا واحدًا بكُلِّيَّته. حين أقول إني أريد فإني لا أريد تمامًا، وحين أقول لا أريد فإني لا "لا أريد" تمامًا، لذا فإن كل أفعالي عائمة على أرض من ماء، ليس لها أساس ولا ثبات، وسرعان ما تقتلعني رياح التغيير حينما أظن أن جذوري قد بلغَتِ العمق...

مُنْهَكَة أنا ومُمَزَّقة بين المبادئ التي أظهرها وتلك التي أخفيها والثالثة التي اشتريها بالكذب والرابعة التي أبيعها بالشهوة. أشعر كثيرًا أني الأخرى لا أنتمي لهذا العالم ولا ينتمي هذا العالم لي، دورتي الدارونية اختلَّتْ لتأتي بي أنا الثمرة الغير ناضجة، الطفلة المُشوَّهَة التي لا تشبه البشر! كأني لست المقصودة بفعل الله حين قال القرآن:"لقد خلقْنا الإنسان في أحسن تقويم"...

ليتني ترابٌ ينتثر كأني لم أُخلَق، ليتني رمادٌ يتبدَّد كأني لم أحترق، ليتني علمْتُ وأنا أنزلق من رحم أمي أن الشقاء سيتلقَّفني ويحملني إلى أن يدفنني أخيرًا في لحدي...

تلك الصرخة التي صرخَتْها أمي حين وضعتْني، كانت نهاية عذابها في حملي، وبداية عذابي أنا وتيهي... يصرُّون أن الحياة نعمة من الرب، والنعمة تستوجب الشكر، لكن النعمة أمر نسبيّ ككل شيء آخر، ما كان لغيري نعمة تستوجب الشكر كان لي محنة تستوجب الدعاء بالصبر أو الخلاص...

يحيى ترك لي رسالة، وجدْتُها مطويَّة بإهمال وعليها بقعة كبيرة من سائل قاتم، لابد أن الخمر انسكب من قنينته حين اشتدَّ به السكر.
يا لعذابه الذي يشبه عذابي! أو كان الله يريدنا أن نلتقي ليُفرِغ كل منَّا عذابه في بواتق الحبر وحوافظ الأوراق ،والرسائل المُعبَّقَة بالخمر والمُبَلَّلَة
بالدموع:
.." أمي... تركتني مثلما تركت آمنة مُحمَّدًا.. في عمر الست سنوات، كان يومًا غريبًا .. الكل يصيح ويبكي ويولول .. والكل ينظر إليّ بشفقة لا أفهمها .. ومن النساء من كانت تنكبّ عليّ فجأة وتضمُّني إلى صدرها بشدَّة ..أذكر رائحة ثيابهن التي تشبه العجين والغسيل والطبيخ... ودموعهن التي تغرقني وأذرعهن التي تطبق على ظهري وأنفاسي... وأبي الذي كان واقفًا على باب الغرفة ينتظر الطبيب أن يخرج كي يؤكد له وفاتها ... ولمَّا حدث، صاح أبي بكل الموجودين بالغرفة أن يخرجوا .. ثم دخل وأغلق الباب خلفه، ومكث مع جسد أمي خمس دقائق ثم خرج ونظر إليّ نظرة عابرة ثم وقف مع بعض معاونيه وأصدقائه وتحدث معهم عن ترتيبات الجنازة والعزاء. وأخرج سيجارة وأشعلها له أحدهم. لم أدرِ قط ماذا قال أبي لجثمان أمي، لكني حين دخلْتُ الغرفة بعده وجدْتُ الملاءة التي تُسجِّيها مُبلَّلَة عند الخد والعنق والصدر. لقد كان ذاك الرجل طويل القامة عريض الشارب مهيب الحضور والغياب يبكى عند ذلك العنق النحيل بحرقة الثكالى!

أتدرين أن صدق الحياة عندي توقف عند تلك اللحظة؟ كل ما كان بعد ذلك من خير أو شر كنْتُ دومًا أُحدِّث نفسي أنه زيف وخِداع .. وأن الناس لا يعنون حقًّا ما يقولون وما يشعرون ..

إنهم يُحبِّون لأنهم ينبغي لهم أن يُحِبُّوا ذاك الشخص بعينه وإنهم يتزوَّجون لأنهم ينبغي أن يتزوَّجوا ذاك الشخص بزيفه.. وإنهم يفرحون لأن هذا مكان وزمان الفرح .. ويحزنون لأن هذا هو مأتم اللطم والبكاء!

اشتعل النواح في جنبات المنزل، لم أكن حزينًا قدر ما كنْتُ فزِعًا .. رويدًا رويدًا فهمْتُ أن أمي رحلَتْ بلا رجعة.. تلك الأصوات.. شعرْتُ كأن بساط الأمان قد سُحِب فجأة من أسفل قدمي..لقد بقيْتُ أنا وأبي الشرطي العقيد..بكفِّه الضخمة التي كان يلكمني ويصفعني بها كما يفعل بالمجرمين في مكتبه وأمي لم تعد بعد هنا كي أحتمي بها.

أبي .. صار أكثر إغراقًا في الصمت، صار أقل قسوة لكنه كان يضربني من حين لآخر .. كان يتركني ساعات كثيرة بمفردي ولم يكن يبالي كثيرًا بصحتي أو دراستي، لكن غيابه كان مُحبَّبًا لي؛ كنت أفعل كل شيء وأُجرِّب كل شيء، في الثامنة شربْتُ أول سيجارة لي، في العاشرة قبَّلْتُ ابنة جيراننا، في الحادية عشر كتبْتُ أول قصة.. وكنْتُ أقرأ كثيرًا .. كنْتُ أقرأ كل كتاب يقع في يدي ..

كنْتُ أكره المدرسة وكنْتُ أكره مُعلِّميَّ وزملائي لأني كنْتُ أراهم جميعًا أغبياء وغير أكْفَاء لتدريس أو دراسة. لم يكن لي أصدقاء، وكانوا هم الأُخَّر يبادلونني الكراهية.

كنت أهوى أن أحرج المُعلِّمين بجهلهم وذكائهم المحدود.. كانوا يُعنِّفونني ويضربونني ويبعثون ببرقيات الشكاوَى لأبي الذي كان يستمتع بما أقصُّه عليه من مواقف إحراجهم، ويضحك ملء فيه ويسُبُّهم ويسُبُّني معهم في مزاح. ويا لمتعتي في نهاية العام حين أرى الحقد في عيون الجميع حين يعلمون أني حصدْتُ مرتبتهم الأولى التافهة بتفوق!

تزوج أبي بعد عامين من وفاة والدتي. كانت امرأة عادية في كل شيء ،لكنها امتلكتْ جسدًا منحوتًا ومُقسَّمًا بعناية. لم يكن بيننا أي حبال للوصْل، لا بيني وبينها ولا بينها وبين أبي، أذكرها كغرفة مغلقة من غرف البيت المغلقة، أو كمتاع منسيٍّ مُلقَى في ركن. كانت غامضة و منعزلة مثلي ومثل أبي. لم تكن على قدر عال من الثقافة لكنها كانت تهوى الموسيقى ، تسمعها مرارًا وتكرارًا وتهيم فيها كمن يسمع الوحي ،لكن الموسيقى لم تكن كافية لتُؤنِس وحدتها وتحل محل أبي الغائب باستمرار، لذا قرَّرَتِ المغادرة. وفي صباح عادي مثلها فرغ البيت منها ، وكان الأمر عادِيًّا كأنها لم تكن هنا من قبل.. في ورقة عادية كتبَتْ لي ملاحظة :"عزيزي يَحيَى، كان بودي أن أعرفك أكثر، لكن باب روحك كان مغلقًا دومًا في وجهي، ربما هكذا أفضل أن نمر ببعضنا البعض بلا اهتمام متبقٍّ ولا ذكرى عالقة. لم أرَ والدتك لكني أعلم أنك تشبهها كثيرًا لأنك لا تشبه أباك، وأعلم أنها كانت امرأة رائعة لأنها تشبهك، إلى اللقاء."

أخذْتُ الملاحظة ولففْتُها حول سيجارة كنْتُ قد خبَّأتُها من علبة أبي، وأشعلْتُها وأخذْتُ أتنفَّس الاهتمام المتبقي والذكرى العالقة، والمرأة العادِيَّة الراحلة ..

علِمْتُ حينها أن ليس كل قليلي الكلام كبار العقول وسديدي المنطق؛ لأن بقليل من الملاحظة كانت ستدري أني أُشبه أبي، بل أني نسخة منه، أكره البشر الأغبياء والحياة التافهة، وأستمتع بعذاب الناس لأني أراهم دومًا يستحِقُّون البؤس و الألم بنفاقهم وزيفهم وغبائهم الذي يُخيِّل إليهم أن الغد يحمل أملهم المُنتَظَر و أحلامهم المُؤجَّلة ..

على كُلٍّ ربما كانت هذه هي النعمة الحقيقية الوحيدة المُطلَقَة التي لا يمكن أن تنقلب إلى نقمة، أن يمُرَّ أحد بحافة حياتك دون أن يترك أثرًا، ألمًا أو جرحًا..ضيفًا خفيفًا لا يُغرِيك بالتعلُّق لأنَّه لا ينوي البقاء منذ البداية ..

أريد الآن أن أسالك سؤالًا:هل الأشياء تَحدُث اعتباطًا أم أن كل شيء يحدث بسبب ونتيجة مقصودة؟؟ أنا أعتقد أن الثانية هي الصحيحة، رغم عادية زوجة أبي وعشوائية دخولها وخروجها من حياتي أنا وأبي، إلا أني لولاها لما سمِعْتُ تلك المعزوفة البيتهوفينية المُسَمَّاة Für Elise، ولولا أني سمعْتُها قبلًا فلربما ما التفَتُّ إليها ولا أصغيْتُ لها حين سمعْتُها للمرة الثانية في عامي الجامعي الأول، وأنا أجلس في ركني المميز ..

كان الصوت يخرج مترنِّحًا مهتزًّا من نافذة صغيرة تطل على بدروم المبنى المجاور. كان المبنى في عادته كئيبًا صامتًا وذاك اللحن، ذاك اللحن كان جميلًا وحيًّا ..

حسنًا، الذكريات لا تُمحَى لكنها تُدفَن في أرض سهلة النبش من بقاع الذاكرة، هناك تبدو الجثامين الشاحبة كأنها تعود للحياة وتمشي خارج الظل .. فقط شيء من القَدَر وقليل من المفاجأة وتُنفَخ الروح في صميم من مات ..

مشيْتُ أغذُّ السير، الصوت يعلو، أنزل الدَرَج والصوت يرتفع، أترك غرفة مُختَنِقة بالكتب، وأخرى مُتخَمَة بالكراسي المُكسَّرة، "وثالثة ،بابها محتل بأقفال كثيرة ومكتوب عليه "منوع الدخول"..،

الصوت يأتي من هنا.. وقفْتُ مُتخفِّيًا خلف الجدار ومِلْتُ بجذعي في حذر وأرسلْتُ رُبع رأسي وعينا واحدة ..ونظرْت .. لكانتِ الغرفة معتمة تمامًا لولا تلك النافذة المغطاة بالقضبان كنافذة زنزانة ،تقطع الضوء النافذ خلالها إلى خيوط لا تلتقي كأقدار العاشقين ، العاشقين مثلي ،الذين يلهون بالحب كطفل ساذج جرَّب لأول مرة أن يلهو بالنيران ،فاشتعلت فيه حرائق لا يمكن أن تهدأ ولا تنطفئ إلا فوق رماده ..

عاشق وقع في حب تلك الفتاة من أول نظرة ،من أول ترنيمة ، من أول شعاع ضوء لمع فوق شعرها الذهبي فاخترق قلبه قبل عينيه! كانت جالسة باستقامة كأنها بيتهوفين يجلس أمام البيانو الكبير ، شعرها الطويل مُسْدَل جميعه على كتفها الأيسر ، رأسها يهتَزُّ يمنة ويسرة مُتتبِّعًا أصابعها الصغيرة وهي تُقبِّل أصابع البيانو برفق وسحر وثقة ، وكأن أصابعها انقلبَتْ جميعًا إلى كزانوفا ،وأصابع البيانو انقلبت فتيات

ثملات بقُبَلِه التي لا تُقاوَم!

ها قد بلغ مني الخمر السكَر، أُحب الكتابة وأنا سكران لأصير أكثرَ حرية وأحرر عقلي من أَسْر المعنى وأُحرِّر يدي من أَسْر الخط و الأسلوب ،وأكتب ولا أدري هل سيفهم من يقرأ أم لا .. ولا أبالي !

هل العقل هو الذي يحب ،هل القلب هو الذي يهوى ؟

هل العشق فخٌّ لا تُنجي منه الأقدار ؟

هل الوقت يَشفي ؟ أم أنه يَكوي ..ويَكوي ؟

هل يفيد الأن أني أبكي .. وأهذي كمعتوه يأس من شفائه فيأس الشفاء منه؟

ككافر يائس من رحمة الله فيئست رحمات الله منه ؟

يا لها من مصادفات ترميك في الأسلاك الشائكة وأسنان الصخر و حلقات النار .. دون سابق تنبيه ولا إنذار

وتتهمك أنك أنت من اختار ،

فهل يختار الصحيح ألمه وجرحه؟ هل يختار العاقل جنونه و خبله؟

هل يختار الحي مصرعه وحتفه، لا ..

لكنه بعد أن يُلْقَى في العذاب ، يمكن أن يختار أن يخنق نفسه أكثر وأكثر بمشانق الانتظار ..

لا انتظار الغد ، ولا انتظار بعد الغد ، لكن لفناء لا يأتي وأبديَّة هي الأخرى لا تأتي..

لماضٍ قاسٍ ينبغي أن يمضي . لكنه أبدا لا يمضي !.

لا أدري أيدور الخمر الآن بالكأس أم برأسي ، لكني اكتفيْتُ اليوم من الكتابة ومنك. ها قد طلبتي مني أن أكتب إليكِ ضَعْفي ، ها هو ضَعْفي ، وها هو سكري وخبلي، ربما المرة القادمة أكتب إليك أضعافًا أخرى

من ضَعْفي ،ربما التي تليها أكتب إليك أضعف ضَعْفي، لكنك أبدًا لن تعلمي كيف تمزَّق يومًا هذا القلب، ومهما كتبْتُ لكِ فلن تعلمي، كم اختنقَتِ الحكاية وهي مدفونةٌ حيَّةً في قبوري المعتمة.. يا امرأة الكتابة والغواية، كل هذه الثرثرة لا تنتمي لي، لكن قلمي يحبك، دوركِ أنتِ لتخبريني عن خيباتك وانكساراتك و عن العمر الذي جرفك إليّ، احذري وأنتِ تضعين رسالتك في مكاننا الخفي؛ افترضي دائمًا أن هناك من يُراقِبون حديثنا الصامت "..!

٣١

يومان قد مرَّا على رسالة يحيى الأخيرة الدَّامية.

كل الكلمات اختنقَتْ في حلقي وأصابعي، رسالته عبثَتْ في دفائني و نبشَتْ جراحًا كنْتُ ظننْتُها قد اندملَتْ، ومع ذلك كان عليّ أن أتماسك وأُخبِّئ جرحي بيد وأجيبه بالأخرى .. كل ذلك الألم في رسالته يوحي إلي بأنه على حافة الموت:

" امرأة الكتابة والغواية لا تملك الكثير لتحكيه لك ،لكنها تخبرك أنها حاولت كثيرًا أكثر مما تظن أن تتصالح مع نفسها والعالم ،لكنها كانت دومًا كمن يملأ بئرًا بلا قاع ،تعزف على بيانو بأصابع محترقة فلا تصنع سوى الصمت..

كيف يمكن هذا ، أن يعلو ويزدهر كل شيء حولنا بينما نحن نظل في عمق الاهتراء والتمزُّق، كأن الطرق تتعمد أن تعاكسنا وتنتهي قبل أحلامنا بخطوة، أو تغدقنا فجأة بكل أحلامنا على اختلافها وشتاتها ، فلا نملك القدرة على الاختيار..نجلس مكاننا لنتأملها وهي فقط تزول واحدًا بعد آخر لأننا كلما أمسكنا بأحدها وجدناه قد صار سرابًا كأنه يعاقبنا بفنائه لأننا فكرنا للحظة في غيره..

لكن كثيرًا ما تكون الاختيارات صعبة حد الحيرة، الحيرة التي لا تنتهي بصلاة استخارة أو باستشارة حكيم، لكن القدر لا يرحم ولا ينتظر، ويدفعنا دومًا نحو اختيار نكتشف مُتأخِّرًا جدًّا أنه كان أسوء من غيره إن لم يكن هو الأسوأ ..

قبل أن أحكي لك عن حبي المقتول، فسأعود للوراء ،قليلًا، أو كثيرًا ،
لأَقُصَّ عليك بداياتي..في رسالتي القادمة ..
إلى لقاء حبريٍّ قريب".

٣٢

"المواضع تهرم إذا غاب عنها الأهل"

(يوسف زيدان)

إنه عيدي الأول الذي أقضيه بعيدا عن أمي وبلدتي.
تحجَّجْتُ لها بتأخُّرِي في المذاكرة ، هي لم تصدقني لكنها لم تلحّ عليّ في السؤال .. كلما كبرنا كلما انشرخ فينا حبٌّ كبير ، الأشياء الصغيرة التي كانت تُفرِحنا وتُدهِشنا لم تعد كذلك،أمهاتنا البائرات يستسلمن للأمر الواقع ، إننا لم نعد صغارهن الذين نعود إليهن باللهفة ..
كيف يملؤنا العالم بالكراهية دون أن ندري ،ما هو الحل لهذه الأحجية الكبرى ؟ أن نعيش الحياة بحذافيرها فيؤذينا الناس أو أن ننعزل عن كل شيء فنؤذي أنفسنا بأنفسنا؟!
الآن لدي كل الوقت لأكتب إلى يحيى ، إلى غريمي ، هكذا ..أحب أن أسميه غريمي لان الكلمة تعني عدوي لكنها تحمل أحرف كلمة غرام ، غريمي الذي أنا مغرمة به ، ها ها ها ، ربما.. :
" هناك من قال " الحياة مصنوعة من الفقد ،ثم التخلي والنسيان ..
ولكن الشيء الأكثر قسوة ألا تملك الفرصة أن تقول وداعًا "!
نعم أذكر مثلك حين كانت تطير روحي لرؤية ذاك الشخص الواحد الفريد الذي لا يشبه أحد ولا يشبهه أحد ، لكن في يوم بارد تجد فجأة

روحك صارت مليئة بالثقوب كالغربال ، لا يرفعه الهواء فيطير ، ولا ينفذ خلاله سوى الحزن والسواد ..

وتتساءل : كيف يتحمَّل الآخرون الحياة وركضها المستمر؟ كيف يبنون أحلامهم الكبيرة فوق كل هذا العبث و الاهتزاز والخوف ، كيف ينامون بالليل كل يوم على أمل أن الغد سيتغير ،ويُخْدَعون بكل هذه السذاجة فيصافحون الشيطان ثم يأكلون من تفاح الكذب.. ويصبحون كما أصبحوا البارحة وأول البارحة وأول أول البارحة ،وأول العمر، عرايا مخزيين خائفين ، يراجعون حسابات الماضي ويضعون حسابات جديدة لليوم والغد ، ويقرقعون كئوس الرهان و يسكرون ب"سنفعل" و"سوف نفعل"!وتدور بهم عقارب الساعة حتى تحملهم في آخر اليوم منهكين إلى سُرُرِهم التي لازالت دافئة فيُعلِّقون أحلام النهار المُرقَّعَة على مشاجب التأجيل و التردُّد ويلبسون أحلام الليل التي لم تزل مُبتلَّة بعرق الليلة السابقة ..

يركضون..ويركضون..ثم يركضون..ويُنهَكون!وهم لا يدرون لم العجلة؟..للمال الزائل أم للسعادة السرابية؟..أم يركضون من الماضي الذي يظنون أنه يركض خلفهم وهم لا يدرون أنهم يحملونه في حقائبهم و جيوبهم .. وتحت جفونهم !

يا يحيى ،العمر يأكلنا من الخارج، والخوف والملل يأكلاننا من الداخل ، وأنا وأنت لازلنا كما نحن، ننظر إلى النجوم بحزن ،ونرسم بها وجوهًا لم تعد هنا !

لماذا أنا وأنت بهذا التعقيد و التفلسف ؟ لماذا لا نعيش كبقية الناس غارقين في البساطة والرضا ، يَسْبَحُون على سطح الأشياء ولا تسحبهم

دوَّامات الأسئلة إلى الأعماق المظلمة كما حدث لنا ،ربما لأننا عباقرة ، أو ربما لأننا الجهال الأغبياء لأننا لا نعلم كيف نسبح ونطفو ونوقف أنفسنا عند الحواف دون أن يجرفنا الشغف للفهم!

أشعر أن الجميع صاروا يكرهونني ،أكاد أسمع همسهم حين يصفونني بالكآبة والتعقيد،من السهل أن أفهم أنهم يتجنبونني و يكرهون مجالستي وأنا أعذرهم لأني أيضا أكره مخالطتهم ، لأن ذاك يجبرني أن أرتدي قِناعًا لا أحبه ولا يشبهني ،بل يشبه وجوههم المشرقة بنور الأمل أو المشرقة بنور الجهل..

يا إلهي ! ذلك الصوت في رأسي لا يفارقني ، يخبرني أنهم جميعا لايعرفون كم في هذا العالم الفرحين بالسير في مسالكه من عذاب وألم وشر كبير أكبر من أن يعادله نور أو خير ..

أحب الكتابة إليك لأنك تجعلني أُمزِّق أقنعتي ، ولا أستحي من أن أُظهِر عرائي أمامك ..

"عُدْنا للبدايات إذن ، ذكراي الأولى ،كانت في روضة الأطفال ،كانت مكانا سيِّئًا للغاية ، كانت الألعاب إما مُكسَّرَة أو مُغلَقَة بالأقفال. لم يكن مسموحًا لنا إلا باللعب بالمكعبات التي كانت نصفها مفقود. كان هناك ساحة كبيرة مفروشة بالعشب وكان ممنوعًا عنَّا أن نعبرها سوى من خلال الممر المُبلَّط الذي يشطرها لنصفين وينتهي ببوّابة الدخول والخروج. لم يكن في الروضة من شيء جميل سوى تلك الصَبِيَّة الحسناء ذات الشعر الأشقر والتي لا أذكر لها اسمًا. كانت صديقتي المُقرَّبَة ، كُنَّا لا نفترق طيلة وقت الحضانة ، وذات يوم جاء أبوها بسيارته ووقف ينتظرها عند البوَّابة.. لما رأتْه من بعيد أخذتْ

تجري نحو الساحة ثم جرتْ فوق العشب ولم تسلك الممر. وكما اعتدْتُ أن أُقلِّدها وأتبعها إلى أي مكان ،جريْتُ أنا الأخرى وراءها فوق العشب. كانت هي قد بلغت الجهة الأخرى حيث ينتظرها أبوها بينما أنا في منتصف المسافة لما سمِعْتُ صوت مُشرِفة الروضة تصرخ فيَّ كأني كُنْتُ أجري فوق نحرها ،وتأمرني أن أعود إلى داخل الروضة حالًا..عُدْتُ إليها في خوف ،فما أن طالتني يدها حتى انهالت على جسدي بالضرب المُبرِّح ، وهددتني أني لو سِرْتُ مرة أخرى فوق العشب فسوف " تكسر رقبتي ".. قضيْتُ يومي وليلتي وأنا أفكر لماذا تركَتْ صديقتي بينما عاقبتني أنا؟ ولماذا عاقبتني أصلًا بكل تلك الغلظة والجفاء؟ وهل حقًّا كانت تعني ما تقوله إنها ستكسر رقبتي؟ وكيف سيكون شكل رقبتي إذا انكسرت؟! وهل يمكنني أن أعيش برقبة مكسورة أم إنني سأموت في الحال؟!

لكني على أيّ حالٍ أطعْتُها في أمرها ؛ لأن هذا كما كان أول يوم ينطبع في ذاكرتي فقد كان آخر يوم لي في الروضة..في الصباح أخبرْتُ أمي وأبي إني لا أستطيع الذهاب لأن بطني يؤلمني، والصباح التالي كان لا زال بطني يؤلمني ، والصباح الثالث كان حلقي يؤلمني ، والصباح الرابع لم أذهب إلى الروضة دون أن أُبدي مبررات.. وانبرت أمي تسألني عن السبب وعمَّا إن كان حدث لي مكروه هناك. لا أذكر أني أخبرتها بالسبب ، لكني أذكر أني لم ألعب مع أطفال من سني بعد ذلك اليوم سوى بعد مرور عام ونصف لما بلغْتُ السادسة والتحقت بالمدرسة الابتدائية ، أذكر تلك المظلة الكبيرة التي اجتمع فيها الأطفال كأفراخ الطير، لم يمرّ سوى ربع الساعة حتى تعارف كل طفل مع الطفل الذي

بجواره، ثم أخذ الصوت يرتفع بالصياح واللعب ، حتى أتى أحد المعلمين حامِلًا كشوف الأسماء وأخذ يُقسِّمنا على فصول الصف الأول ، أربعة فصول ، كان نصيبي في الفصل الرابع ..

أتدري أننا نهرب من عادِيَّة الواقع إلى غرابة الخيال ، رغم أن الواقع في صُدَفِه وأقدارِه أغرب من أي خيال؟

ذاك المُعلِّم الذي قسَّمَنا عشوائِيًّا على الفصول الأربعة ،هل كان يدري أنه يُقسِّم حيواتِ وأقدارَ تلك الأسماء التي جمعها ببعضها في فصل واحد؟!

سيَظَلُّون في فصل واحد لست سنوات متتالية ،ستُخلَق بينهم صداقات قد تستمر طيلة العمر ، وسَيُولَد بين صبيانهم و صباياهم قصص حب قد تستمر أيضًا طيلة العمر، وقد تكون لهم بعد ذلك جرحًا مفتوحًا على الذاكرة أبدًا ولا يندمل!

لو كان هذا المُعَلِّم يدري كل هذا لارتعدت فرائصه بينما يُقسِّم الله الحُبَّ و الكُره و الجرح بلسانه..نعم! كلنا أدوات في يد الله،يستعملنا ليَصِل بنا ويقطع،ولا حيلة أو حول لنا إلا به ..

هنا كانت البداية لسبع سنوات من الحُبِّ والقرب والفرقة و الصدمة والأمل والخيبة ، حُبٍّ طفوليٍّ كنا نبنيه ليكبر معنا دون أن ننتبه للشرخ الذي كان يكبر هو أيضا في دأب و صمت ، حتى انهار كل شيء فوق رأسَيْنا ، لا بل رأسي أنا وحدي ، و...

لن أطيل ..

سأختصر لك حكاية حبي المقتول في هذه السطور، هناك بشر يتغذّون على دهْس قلوب من يهتمُّون بهم .. ولو كفّوا هم عن الاهتمام

بهم للهثوا هم وراءهم كي يهتمّوا بهم مرة أخرى ،ويدهسوا قلوبهم بكل قسوة مرة أخرى ..

لقد نشأوا وكبروا على الأنانية وأن كل هذا الكون وما فيه من بشر بُساط تحت أقدامهم.. أحيانًا أَعذِر فرعون من قومه أنه قد نشأ وهو يُنادَى بلقب (ملك)،ثم لقب "إله ".. كل من حوله ألَّهوه ،وعَوَّدُوه أن الأمر والخلق والموت بيده ثم فجأة جاء رجل يهدم هذا الوهم الكبير ببضع كلمات ، ويدٍ تُضِيء وعصًا تتلوَّى.. لم يكن هذا كافِيًا لهدم كل ذاك الكِبْر الذي صار يجري في دماء فرعون ويسكن كل خلية من خلاياه..(فرعون) لم يصِرْ (فرعون) ،لكنه "صُيِّرَ" " فرعون ! أو كما يقولون ..يا فرعون مين فرعنك !

كذلك نصنع آلهتنا في ذُلٍّ ثم نهتف بسقوطهم في حماقة! وكذلك كنْتُ أنا وهو ،وكان ألْف فتاة غيري وألْف فتى ، وكان ألْف فتًى غيري وألْف فتاة، بعضنا فرعن بعضنا ، ونفخْنا في نفوس بعضنا كل تلك القسوة والجبروت بضعفنا وتعلُّقِنا ، وحوَّلْنَا الطيبين والطيبات إلى شرسين وشرسات، ذبَّاحين للقلوب ..وذبَّاحات! لذلك كلنا بطريقة ما في مسائل الحب الغير مكتمل والتفرُّق القاسي كلنا فيها مُذنبون بطريقة ما ،حتى لو كنا نحن فيها الضحايا !

هذه خلاصة درس طوله سبع سنوات ،

وفي قصة حبي المقتول ، لن أزيد عن ذلك حرْفًا !

٣٣

"ليست مصادفة أن كلمة ابتسام أولها أب وآخرها أم "
(أنيس منصور)

في ذاكرتي المُرْتعِشة ، لا يزال أبي نائمًا كأعجوبة لا أفهمها ؛ربما لأني لم أعرفه كفاية..كان يعمل مهندسًا ومقاولًا وتاجرًا و أشياء كثيرة وألقابًا كبيرة ، لكنه بطريقة ما كان دائمًا لا يملك مالًا كفاية ، كفاية لماذا؟ كفاية لطموحات أمي التي كانت دومًا تُردِّد أنها قد شطبَتْها بنفس القلم وفي نفس اللحظة التي وقَّعَتْ بها على عقد قرانها من أبي كما لم يكن كفاية لأدويتي الكثيرة والغالية.. لم يكن أبي يدري كم كُنْتُ أتمزَّق وأنا أسمعه يتحجَّج بثمن أدويتي التي يجب أن يشتريها والعمليات التي كان ينبغي أن أُجرِيها كلما طلبَتْ منه أمي طلبًا ، ولم تكن أمي تدري كم كنت أتمزَّق وأنا أسمعها منذ أن كنْتُ بالابتدائية وهي تُحدِّث إخوتها عن مرضي وعما ستفعل إذا بلغْتُ سِنَّ الزواج ،من سيرضى بالزواج مني ويتحمل نفقاتي و سعيي بين الأطباء الذي لا ينتهي؟ لكنَّ أبي كان رجلًا طيِّبًا ،على الأقل كان الجميع مجمعين على هذا، حتى أمي. كان يُحبُّ القراءة ، ما كان يجلس في البيت إلا وكتاب في يده يقرأه أو مدوَّنة فارغة يكتب فيها ما يتراءى له على هامش قراءته. كنْتُ كثيرًا ما أجلس بجواره وأقرأ معه ما يقرؤه وما يكتبه ،لم أكن أفهم الكثير لكنِّي كُنْتُ أُحِبُّ أن أسمع صوت الصفحات وهو يقلبها بأنامله على مهل ، وصوت القلم الرصاص وهو يمسك به من منتصفه ، تمامًا مثلك ، ويحرِّكه

فوق الورق الأبيض، كان يقرأ بسرعة بالغة ، ينتهي من الصفحة وأنا لازلْتُ بعد في أولها. لسبب ما، كنْتُ أستحي أن أطلب منه أن يقرأ ببطء ، وكنْتُ أقرأ معه الصفحة التي تليها والتي تليها دون أن أجد نفسي قد قرأْتُ أكثر من سطرين أو ثلاثة ، فيصيبني الملل وأنهض ، لكن كثيرًا ما كان يتوقَّف فجأة عن القراءة ويأتي بقلمه على مهل ويرسم خطًّا غليظًا تحت جملة ما ، ويطلب مني أن أتذوَّقها بلاغيًّا ، لم أكن أدري في البداية ماذا يريد ، لكنه كان يشرح لي في كل مرة وجهًا من وجوه البلاغة ، وكيف أن هذا الوجه يظهر في هذه الجملة. كنْتُ أسعد كثيرًا كلما فعل هذا؛لا لأني تعلَّمْتُ شيئًا جديدًا قَدْرَ أنه تحدَّث إليّ أخيرًا بعد كل هذه القراءة الصامتة. أذكر أوَّل جملة قد علَّمها بالقلم وطلب منِّي أن أتذوَّقها ، ونجحْتُ في ذلك..كانت رواية دكتور جيكل ومستر هايد مترجمة للعربية،وكانت الجملة:"وكنْتُ أنا نفسي حقل تجارب لنفسي !"

كان يُحِبُّ أيضًا الكلمات المتقاطعة ، لم يكن يُفوِّت يومًا دون أن يشتري جميع الصُّحُف ،وما أن يفرغ من قراءتها حتى ينبري يحلُّ جميع كلماتها المتقاطعة. كان نادرًا ما يترك صَفًّا أو عمودًا بلا حلّ ،وكان ذاك الصف أو العمود المتبقي يضع عليه علامة استفهام كبيرة.. كنْتُ أجتهد دومًا أن أجد ذلك الحلّ فأفشل ، ثم بدأْتُ أغشُّ الحلَّ من العدد اللاحق ، وأخبر أبي أنِّي وجدْتُ الحلَّ بنفسي! كان يُمَسِّد على شعري وهو يضحك،ويقول لي:" إنَّكِ عبقريَّة ؛ قد علِمْتِ حلَّ لغز الأمس دون حتى أن تنظري في إجابته في عدد اليوم! "

كان كثير الضحك قريب النكتة ،لكن لسبب ما بعدما كسر حاجز الستّين فقد اهتمامه بالحياة..صار أقلَّ كلامًا حتَّى امتنع نهائيًّا عنه ،خاصم الكتب كلَّها ،زاد في التدخين حتى اهترأ قلبه ،وامتنع عن العمل حتى خسر تجارته ، وذات يوم بلا أيّ مُقدِّمات ،كان جالسًا على كرسيه مُتوجِّهًا للقبلة ، وكتاب الله في حجره ورأسه نائم على صدره وعيناه تنظران للا شيء.. كان الأمر كلُّه غريبًا ؛لم يكن أبي مُعتادًا أن يقرأ القرآن ، ولم يكن أبدًا يُحَوِّل كرسيه عن النافذة ويوجِّهه ناحية القبلة ، كان يبدو كأن أحدهم قد وضع أبي في تلك الهيئة ،ربما هو الله فحسب!

أبي كان عبقريًّا ،لكنه كان كتومًا..من أغبي ما يقول الناس :"لا تتحدَّث بلسانك عن نفسك لكن دعْ أعمالك تتحدَّث عنك!"؛ فكثير ما تكون الأعمال رغم عظمتها ، خرساء! وعلى الإنسان أن يملأ الدنيا بأحاديثه عن نفسه وعن إنجازاته التي حقَّقها والتي لم يُحقِّقْها أيضًا..الناس يبنون أصنامهم في أعين الناس بطين الكلام ،الناس يحبون الكلام، يأكلون بالكلام ويشربون بالكلام وينامون على الكلام ويستيقظون على الكلام ، وينصرون بالكلام و يظلمون بالكلام ، ويدخلون الجنة بالكلام ويكبّون على وجوههم في النار بالكلام ، ومن لا يُحسِن الكلام بلسانه عليه أن يُحسِن الكلام بقلمه ،وأما من اكتفى بالكلام في صمت قلبه فلن يجني سوى الصدى ... و...

لن أُطيل

أما عن تلك الساحرة التي ملكتك .. فإني أدري.. أنه لا يمكن للأشياء أن تنتهي هكذا ببساطة أليس كذلك؟ ، على الأقل ستجرحك المخالب وهي تمر بك..

أتدري ماذا يفعل الهر الصغير حين تُمسِك به وترفعه عالِيًا ويشعر أنك تريد أن تتركه حين ترخي كفك القابضة على جسده؟؟ إنه يغرز مخالبه فيك ،يُهدِّدك أنَّك لو تركْتَه فسيغرز فيك مخالبه أكثر وسيُمزِّق لحمك .. هكذا "إما أنا وأنت ، وإما أنا فقط"! ..

لا أدري بعد ما حدث لكما ، لكني أُخمِّن أنَّها مزَّقَتْكَ في العمق.. أقرأ كلماتك وأكاد أسمع فيها أنينك.. لا أُريد أن أُواسيك وألبس رداء المسيح وأعظك بالصبر والرضا لكنِّي سأكتفي أن أخبرك أنِّي كُنْتُ مثلك أسير كلّ يوم في شوك الذاكرة وأنا أسيرة لحبي الراحل ،لكنِّي الآن أفضل حالًا ، لسْتُ بخير تمامًا لكنِّي أفضل حالًا.. الوقت بعد الفراق والتمزُّق يكوي الجرح المفتوح،سيؤلمك أكثر لكنَّه بالنهاية سيندمل ، ربما عليك أن تعطي روحك بعض الوقت .. مزيدًا من الوقت ، ..لعلَّك تسمح لي بالنفاذ خلالك أكثر فأستطيعَ أن أُساعدك.. إني أهتم لأمرك حقًّا ،ولا تسألني عن الأسباب ،أعرف أنَّك تُحِبُّ مَنْطَقَة الأشياء وفلسفتها ، لكن صدِّقْني الحياة مزدحمة بأشياء غير منطقيَّة وأحداث مبتورة الأسباب .. وأشخاص راحوا -وغيرهم سيروح - ضحايا الصدفة المحضة!"

٣٤

لم يتأخَّر يحيى في الردّ ، أغاظني أوَّل ما قرأْتُ أنَّهُ تجاهل كل ما أرسلْتُ إليه واكتفى بالحَكِيّ عن يحيى الصغير ، لكنِّي بعد قراءة بضعة أسطر نسيت ما أرسلْتُه له ونسيْتُني :

"..أبي له ألقاب كبيرة أيضًا، ضابط ، ملازم فملازم أول فنقيب فرائد فمقدم فعقيد. كان مُحمَّلًا بالنجوم والنسور وقليل من الحُبّ.. كان دومًا أنيقًا وحادًّا وحازِمًا..قليل الضحك لكن حين يضحك كانت تملؤني ضحكته المُصلصِلَة بالفزع والارتجاف.. كما كانت أمي تملأ قلبي، كان أبي يملأ عقلي في يقظتي وأحلامي.. كُنْتُ أهابه لأن أمي كانت تهابه، وكُنْتُ أزِن كل أفعالي قبل أن أفعلها بردّة فعله: هل سيغضب؟ هل لن يبالي؟ هل سيضحك مني ويسخر؟ كُنْتُ كلَّما قرأْتُ كتابًا ورواية أتمثَّله في أكثر الشخصيَّات قوَّة و أذى ، تمثَّلْتُه في (نبتون) إله البحر الغاضب، وفي (ثور) إله الرَّعد الشرِس، وفي شيطان (دانتي) ذي الرءوس الثلاثة الذي يلتهم المذنبين.. كُنْتُ أراه في الحجَّاج الباطِش وفي (نيرون) ملك النار. نعم، كان قاسِيًا! وكان يملأ قلبي بقسوة أكرهها فيّ كما كُنْتُ أكرهها فيه..كُنْتُ أكره الساعة حين كانتْ تدقُّ مُعلِنة الثانية ظهرًا لأنَّها ميعاد رجوعه، وكُنْتُ أكره صوت المفتاح وهو يدور في باب المنزل، و كُنْتُ أكره ركلته للباب بعنف ليُعلِن مجيئه بصخب وحريق، وكُنْتُ أكره رجفتي وجفولي حين أسمعها وأختبئ في غرفتي كي لا يراني. أذكر كيف كان يدخل على أمي في صحبة الشيطان فيفتعل المشاجرات من أتفه الأمور، وينتهي المشهد بالسباب القذر وأحيانًا بالضرب المبرح!

أذكر كيف كُنْتُ أُغلِق باب غرفتي وأجلس مُستنِدًا إليه ضامًّا قدميَّ إلى صدري، وأصمُّ أُذُنيَّ كي لا يصِلَهما صراخ أمي، وأتمنَّى من الله أن ينتهي الأمر سريعًا.. وحين يهدأ كلُّ شيء كُنْتُ أتسمَّع صوت حذائه وهو يمُرُّ بجوار غرفتي لِيَصِل إلى غرفته، وأتمنَّى ألَّا يُنادي اسمي كي يراني. وإذا حدث، فكُنْتُ أقترب منه في حذرٍ وارتعاش، رافِعًا ذراعي نصف رفعة تحسُّبًا للطمة تُعانِق خدِّي، فينهرني لضعفي ويصيح:"أنت رجل والرجل لا يخاف!"

هل كُنْتُ حينها رجلًا؟ وهل الرجل لا يخاف؟ أعتقد أنَّ الرجل الذي لا يخاف هو الرجل الذي بلا قلب. لقد صِرْتُ رجلًا وصِرْتُ أخاف كل شيء كأن الحياة كانت تسقيني من سُحُب الظلمة و منابع الرعب، لكن القدر مزَّقَ قلبي فصِرْتُ حجرًا صلْدًا، قطعة من الحديد القاسي لا تهاب حتى الله!

قبل وفاة أمي بأيام، كان أبي يُدخِّن سيجارته ويتحدَّث بالهاتف، وكُنْتُ ألعب بِكُرَةٍ اشترتها لي أمي في عيد ميلادي ،قذفْتُ الكرة بحماقة فأطاحت بمطفأة سجائره، نظر إليّ بلا مبالاة، ثُمَّ طلب من مُحدِّثِه أن ينتظر. ناداني في هدوء بإشارة من يده، فأقبلت بطمأنينة مزيفة ، ووقفت قبالته ، سحب نَفَسًا عميقًا من سيجارته فقتلها ثم دهسها بحذائه، و نظر إليّ في صمت ثُمَّ طارت يمناه بصفعة على خدي وقعْتُ في أثرها أرضًا ، تذوَّقْتُ طعم الدَّم في فمي ،وشعرْتُ بقلبي ينفطر ،أردْتُ أن أبكي ، لكنَّه أمسكني من يدي ورفعني لأقف على قدمي ووضع سبَّابته على شفتيه المضمومتين ووسَّع محجريه، فصمتُّ، و زممْتُ

شفتيَّ لكنِّي لم أملك عينيَّ اللتين سحَّتا دموعًا حفرَتْ خدِّي الأحمر، فلطمني بيسراه ثم سألني:"ألم أقل لك (لا تبكِ)؟ أو يبكي الرجال؟! "
أو يبكي الرجال؟! أسأل نفسي هل كُنْتُ حينها رجلًا؟ وهل لا يبكي حقًّا الرجال؟!

إذن لماذا بكى هو على عنق جثة أمي الهامدة وصدرها بعد أيام؟ تلك التي قتلها الحزن الذي تفنَّنَ هو في صنعه!

أقبلتْ أمي تهرول، أبعدتْني من يديه الغليظتين، فسبَّها ولأوَّل مرَّة سبَّتْه هي الأخرى، فجحظت عيناه غيرَ مُصدِّق، ثُمَّ ساد الصمت، وبدَتِ العاصفة قادمة لا محالة! انفجر أبي كبراكين أيسلندا الغاضبة، ورأيْتُ (نيرون) يحرق روما والحجَّاج يقطع رأس ابن الزبير ورأيْتُ شيطان (دانتي) وهو يلتهم العصاة ورأيْتُ (بوسيدون) وهو يعصف (بباديسيوس) وينفيه في ظلم البحر.. كل هؤلاء رأيْتُهم في قبضة أبي، وهو يلكم أمي لكمة طارت لها أسنانها، ثُمَّ لكمة أطفأَتِ النور في إحدى عينيها ثُمَّ دفعة لرأسها في الحائط فشُجَّ، وانفجر الدَّم الذي سال على يده فأخمد حِمَم براكينه، وسقطَتْ مغشيًّا عليها.

شحب وجه أبي، و فجأة كأنَّه تذكَّر أنها زوجه، أو كأنَّ ميكائيل الرحمة هبط فجأة من السماء فقتل شيطانه، وتداعى بجوارها كشجرة كبيرة يابسة، وأخذ يُنهِضها دون جدوى. صاح بي أن أُنادي جارنا الطّبيب ففعلْتُ، وعُدْتُ به. كانت أمي في طور الفواق، فلمَّا أفاقتِ ابتعدَتْ عن أبي كأنَّه شبح واحتضنتني بقُوَّة، وقف أبي وشيئًا فشيئًا كفر بميكائيل و استدعى شيطانه الراحل، ونظر إلى الطّبيب في غضب وقال في حِدَّة:

"تفقَّد يا صديقي جرحها وقُمْ باللازم" وأطال النّظر إليه كأنَّه يقول ضِمنًا:"وليبقَ الأمر سِرًّا"!

كان أبي يُحِبُّ أمي، نعم، ويُحِبُّني أنا أيضًا، نعم، لكِنَّه كان أيضًا يُحِبّ سطوته وقُوَّته، ويُحِبّ الضرب والسب أكثر، وأَنسَتْه تحيَّة الضبَّاط والجنود في الصَّباح والمساء أن ليس البشر جميعهم جنودًا.

كان يضربني لأصير قويًّا وقاسيًا مثله، وقد صِرْت، وكان يضربني كي لا أبكي فتحجرت مقلتاي و تيبَّس قلبي، وكبرْتُ في كنفه وقالبه فصِرْتُ مثله، إلى أن قابلْتُها...

لا،لم أقابلها بعد؛ لا زال هناك نقْشٌ في حجر طفولتي لابد أن أتحدَّث عنه، ذاك الصباح الشتويّ من صباحات يناير وأنا في الرابعة عشرة من عمري، حين نهضْتُ من نومي وأسفل مني يرقد كتاب الفتوحات المكّيَّة لابن عربي، وقد أغمضْتُ عيني الليلة الفائتة على كلماته الشاردة الغامضة. استيقظْتُ وأنا أمتلئ برغبة لم أعرفها قبلًا في التحرُّر من كُلِّ قيد ويقين، وكما استفتح ابن عربي على الثوابت بعون الله استفتحْتُ أنا الآخر على قيودي بقوَّة الله. ونهضْتُ ووقفْتُ أمام أبي الذي كان يُلَمِّع حذاءه الجلدي ، نظرْتُ إليه وصِحْتُ:"أنا أكرهك!"..شعرْتُ أنَّ عضلاتي تنفر و عروقي تنتفخ ، وهرمون الذكورة يضخ فيها الدماء ، وجسدي الأخذ في الاستواء ينتفض مُتحفِّزًا لقتال وشيك. نظر إليّ بلا مبالاة ، واستكمل تلميع حذائه، صِحْتُ:"أتدري ماذا أُسمِّيك في دفاتري؟ أُسمِّيك(الضابط الأعمى)، وأُلقِّبُك ب(النصف رجل)، وأرسمك في جسد كبش أقرن!"

كُنْتُ حينها قد بلغْتُ ذؤابة جنوني، وشعرْتُ أنَّ الدَّم يضرب في أطراف أصابعي كمطارق الحديد، وأنَّ قلبي المُضطَّرِم يوشك أن يُحطِّم صدري، لكنَّ أبي لم يعِرْ رعونتي أيَّ انتباه، فتملَّكَتْني الشجاعة لأقذف آخر قنابلي:"أتعلم شيئًا آخر؟ أمي أيضًا كانت تكرهك!".

حينها تسمَّرَتْ يد أبي، وأغمض عينيه كأنَّه يستحضر قوَّة خفيَّة، ثم قذفني بالحذاء فابتعدْتُ ولم يُصبْني، ثم نهض، وشعرْتُ لأوَّل مرَّة أنَّ جسده لم يكن بتلك الضخامة التي لطالما أرعبتْني. حاول أن يصفعني فاعترضْتُ كفَّه، ففارت النَّار في آتون كبريائه، وحملق بي مصعوقًا لا يُصدِّق! طارت يسراه وصفعني بها على خدي الآخر، فركلْتُه بقدمي في ساقه، فتأوَّه بقوَّة غير مُصدِّق، فأمسك عنقي ورفعني لأعلى ثم خنقني في مواجهة الجدار... صاح في وجهي بالسباب، صِحْتُ بصوتي المُختنِق:"أتريد أن تقتلني كما قتلت أمي من قبل؟" صاح:"لم أقتلها، لكني سأقتلك أنت!"

صِحْتُ:"أيها الجبَّار أين أنت من الجبَّار؟" لم أكن أومن بالله يقينًا، ولا هو، لكنَّ العالم مليء بالذين لا يؤمنون بالله لكنهم يخافونه!

كُنْتُ أظنُّه منهم...

قال:"الجبابرة لا يَرحمون ولا يُرحمون!" ولما ازرقَّت شفتاي وملأ الزبد جانبي فمي، ودارت بي الدنيا لتلقيني خلف حافتها، وشعرْتُ أنِّي في النَّزع الأخير، ترك رقبتي فسقطْتُ مغشِيًّا عليّ. وأفقْتُ، فوجدْتُني مُمدَّدًا على سريري مُغطًّى بالأردية، مُنهَك القوى أكاد لا أذكر ما حدث، كان الصمت مُطبِقًا كأنِّي نائم في رحم الموت، ثُمَّ تذكَّرْتُ ما كان، وظننْتُ أنَّ أبي رحل ، نظرْتُ إلى مكتبتي فوجدْتُ كتاب الفتوحات المكِّية مُتكِئًا في ركن

كالمخزيّ، ورأيْتُ الإمام الأكبر يطلُّ منه ناظرًا إليّ في شفقة كأنَّه يعتذر إليّ،ابتسمْت، وتنفَّسْتُ بهدوء وعمق. كان جسدي مُنهَكًا لكنَّ روحي كانت خفيفة كأنَّ جاثومًا قد نهض لتوّه عنِّي، ما من حكيم إلا وقال:"لا تغضب"، لكن وإن كان الحمقى هم الذين يغضبون و يثورون لكنَّهم هم الذين يفوزون دائمًا!

نهضْت، وقد بدأْتُ أشعر أن ذراعي تُؤلمني بسبب لكمة أبي التي قمْتُ بصدِّها، نظرْتُ إلى غرفة أبي فوجدْتُها مُغلَقَة والنور مضاء ، نظرْتُ إلى السَّاعة، لقد غفوْتُ ثلاث ساعات كاملة! أبي لم يذهب إلى العمل، فجأة انفتح الباب برفق، بدَتِ الغرفة كأنَّها غرفة بخار من شِدَّة الدخان، كم سيجارة حرقها أبي وكم فكرة مسعورة نهشت رأسه في ثلاث ساعات، ليخرج بعدها العقيد الأنيق بقميص غير مُدخَل بعناية في السروال وحذاء مُتَّسِخ بالرماد ويمرُّ بجواري كأنَّه لا يراني، ويخرج وتبتلعه سيارة الشرطة ويرحل...

ناداني الإمام الأكبر لنكمل ما بدأناه، و غرقْتُ في وحي كلماته، أقرأها وأعيد قراءتها وأفهم القليل ولكن أشعر بالكثير، وأُترجم غريب كلامه بلسان العرب فيزيد المعنى غموضًا على غموض، لكن الوقت كان يمرُّ بسرعة، ولم أُبالِ بدقَّات السَّاعة الثانية، وعاد أبي، ولكنِّي هذه المرة لم أرتجف لسماع صوت مفتاحه يدور في بابنا، ولا لصوت ركلته العنيفة للباب، وعلمْتُ أنَّه قد تحطَّم صنمٌ لأبي وانسحق بيننا لما تصادمنا...

كُنْتُ أقرأ المُجلَّد الرابع، لما اقترب مني وقال:"(الشطحات الهلكية ، لمميت الدين بن عبري)، من أين تحصل على تلك الكتب الشاذَّة؟"!

لم أُجبْه واستمررْتُ بالقراءة. جلس على طرف السرير، وقاطع قدمًا بقدم، ثُمَّ أخرج علبة سجائره وقدَّاحته وأشعل سيجارة، ومن خلف الدخان قال:"أنت لا تفهم، لقد أحببْتُ أمك كثيرًا، بل إني لم أُحِبَّ مثلها أحدًا قط، حتَّى أنت، أنا أُحِبُّك لكن المشكلة أنَّك تُشبهني، أنت بقايا غروري و قبحي و حواشي شرودي، كُنْتُ أنحتك بقوَّة قبضتي وصلصال الجهل فلا أدري كيف ستبدو بالنهاية، واليوم علمْتُ أنّي كُنْتُ أصنع مرآة تعكسني ..

أما أمك، أما أمك فكانت لي ضدًّا وكمالًا، كأنَّ الله صنعها لتسدَّ ثغور روحي، كُنْتُ أقسو عليها، نعم، ولكنَّها كانت تفهم، كانت تفهم أنَّها تزوَّجَتْ وحشًا تربَّى بالكَفِّ والسّوط والعصا، ثُمَّ ألبسه أبوه بزَّة الضابط رغمًا عنه و ألقاه وسط القتلة و المجرمين الظالمين منهم والمظلومين، وقال له"ابطش"، فبطش!

أي بُنيّ، إنَّ البشرَ هم خطايا آبائهم وحسناتهم، وحصاد زرع غرسه جدّ قبل جدّ، ولولا أنّي أدري ذلك ما كُنْتُ جالِسًا الآن على سريرك أحادثك بعد ما صدر منك اليوم"...

هممْتُ أنا وابن عربي أن نتحدَّث ونُبرِّر، لكنَّه أسكتَنَا بحركة من يده، وتابع:"إنَّ أمك قد علمَتْ ذلك، لذا فإنّي أعلم أنَّها لم تكرهني، بل كانت تُحِبُّني مثلما كُنْتُ أُحِبُّها وأكثر وحتَّى آخر يوم في حياتها، لقد كُنْتُ حبيبًا صادقًا لكنّي كنْتُ زوجًا سيّئًا، ربما لو عاد بي الزمن وعادت هي إلى الحياة لحاولْتُ أن أصير زوجًا أفضل، لكن ما حملْتُه ولا زلْتُ أحمله لها من حب لن يزيد شعرة؛ لأنَّ قلبي كان مُمتلِئًا عن آخره بها"...

عاد ابن عربي إلى داخل الكتاب وهو يضحك، وأمَّا أنا فاكتفيْتُ بالابتسام السَّاخر، نظر إليّ أبي بطرف عينه وسحب آخر نفس في سيجارته، وقال بصوت كسير لم أسمعه منه من قبل:"ربَّما لا تصدِّق، ربما لا تفهم، لكن يومًا ما ستومض الحقيقة في رأسك كالبرق، وحينها ستعلم أنّي لم أكن بهذا السوء الذي تظنُّه، لكنَّ الحياة سراب ووهم كبير، وما يبدو لك بالنهار ظاهر كفٍّ فستعلم بالليل أنَّه باطنها، وما تراه باطن كفٍّ بالليل ستعلم بالنهار أنَّه باطن قدم، وستعلم أنَّ الخَيِّرين هم أبوك وأمك، وأنَّ بقيَّة العالم أشرار مهما بدا لك غير ذلك!".

ونهض وخرج، وعاد الجاثوم يخنق أنفاسي، لم أكن أدري هل كُنْتُ أرى أبي شرَّ ممَّا كان عليه حقًّا؟ هل جميع الآباء مثله أو أسوأ منه كما فتئ يقول، وأنَّه عليّ ألَّا أُوازنه بأمي الراحلة لأنَّ النساء خُلِقْن من ضلع العاطفة؟ و لو أنَّ أبي الذي كنْتُ أراه رمز الشرِّ في هذا العالم هو الخير، فكيف يكون الأشرار حقًّا يا ترى؟ لقد كنْتُ أرى الناس أغبياء لكن لا يمكن أن يكونوا أشرار أيضًا، الشرير الغبي يحرق العالم ويُفنيه، لكن أليست هذه هي الحقيقة؟

رقدْتُ وأنا مُنزوٍ على ساحة حرب تدقُّ طبولها في صدري، أفكاري ومشاعري تصطفَّان إزاء بعضهما البعض والغبار يكتم أنفاسي،(أبولّو) العقل و(مدياس) القلب، يستعدَّان للقاء عاصف خِفْتُ أن يُهلكني!

كان عقلي يريد أن يُكذِّبه لكنَّ قلبي لان لكلامه وصدَّقه، ربَّما عليّ أن أقترب منه وأتفهَّمه.

بعد ذلك تغيَّر أبي بعض الشيء، صار يتحدَّث معي بلغة أقل حِدَّة وأقل سبابًا وبذاءة، وصِرْتُ أنا أيضًا أكثر كلامًا بعد أن كانت كل أحاديثي في

رأسي أو في كتاب أو حبرًا على ورق، وهذا بالنهاية طبعني بقالبه أكثر وأكثر لكنَّ الأمر لم يكن بهذا السوء؛ تعلمْتُ كيف أكون مُتسلِّطًا وفظًّا و بذيئًا، كان الجميع يخافني ويتَّقي فحشي، وهذا جعلني مكروها لكن مهاب الجانب.

هكذا قضيْتُ مراهقتي، أقرأ وأكتب و أتسلَّى بالنساء، كُنْتُ صيَّادًا ماهِرًا وكان صيدي سهلًا للغاية، يكفيني أن أكون وسيمًا وطويلًا وابن العقيد ،وجملة ك"عيناك ساحرتان الليلة" ولمسة محترفة لوجنتها مع شعرها وأذنها حتى تذوب ويُصيبها الخدر ثم يصير كُلُّ شيء سهلًا...

كان الجميع بين كاره أو حاسد لي لكني لم أكن أبالي، لم أكن أبالي بأحد ولا بماضٍ ولا بأمل. كُنْتُ أقضي الأيام لِتَمُرَّ، وأسير نحو المجهول معصوب العينين. لم أكن أتمنَّى الموت لأنِّي كُنْتُ ميِّتًا حقًّا، ولم أكن أتمنَّى الحياة لأنِّي علمْتُ أنَّها دُفِنَت في قبر أمي.

كُنْتُ أظنُّ أنَّ أبي سيُلحِقني بكُلِّيَّة الشرطة، لكنَّه أصرَّ أن ألتحق بكُلِّيَّة الطِّبِّ، ربما كان يأمل ألَّا أصير مثله في كُلِّ شيء، لم يكن يدري أنِّي سأصير هو لكن بزي مختلف...

وجِئْتُ إلى الجامعة، ذاك العالم الفسيح الصَّخب، كُنْتُ سعيدًا لأنِّي لابُدَّ وأن أجد بشرًا يشبهونني في وسط ذاك الزحام، لكن يومًا بيوم كبرَتْ خيبتي، حتَّى هنا، لا أجد من يشبهني! لم يفارقني ذاك الإحساس القويّ الخانق بالوحدة، ورغبتي المكبوتة أن أنتمي، والتي كُنْتُ أخفيها عن الجميع لأنِّي كُنْتُ أراها ضربًا من الضَّعف. كُنْتُ أكره الناس وهم يبادلونني الكراهية، لكن إن كان سارتر قد قال:"الآخرون هم الجحيم" فإن الوحدة جحيم أكبر وأشد، الوحدة خواء يأكل القلب الحيّ...

واستمرَّ تيهي في صحاري نفسي المقفرة، أهيم على وجهي لا أدري إلى أين وأدور في حلقة غربتي التي طوَّقْتُ نفسي بها رغمًا عني، وكلما اقتربْتُ من جماعة بشر ابتعدْتُ عنهم لأنهم لا يشبهونني أو ابتعدوا هم عني لأنّي لا أشبههم، وبدأ الجميع يتحدَّث عن ذاك الفتى الغريب الأطوار بذيء اللسان، الذي يُحدِّث نفسه كالمجانين وينعزل في ركن لا يشاركه أحد، وكعادتي لم أبالي، ويئسْتُ من الناس كما يأسوا هم منِّي، حتى رأيْتُها و...

إلى رسالة قادمة يا شمس

حتى حينها كوني كما أنتي .. جميلة ، وكوني بخير. "

يريد يحيى أن يشعلني بالشوق، لا بأس...على الأقل هناك شيء سأستيقظ غدًا من أجله.

٣٥

"لابُدَّ أن نحكي الحقائق كحقائق، ونحكي الأساطير كأساطير، علينا ألَّا نخلط بينهم في عقول أطفالنا لأنهم يُصدِّقُون كُلَّ شيء على أنَّه حقيقة، ولا يدرون الخدعة إلا بعد الصَّدمة."

(هيباتيا)

صادقة كانت هيباتيا ، لو كان أبي أو أمي تحدَّثا معي بشفافية، لو أن أبا يحيى كان أكثر حكمة ورجولة، لو أنَّهم لم يتركونا للكتب تُربِّينا بعشوائيَّة و عبث لتغيَّرَت فيّ وفيه أشياء كثيرة، لصِرْنا أكثر نضجًا وفهمًا للحياة والناس، ولعلمْنا أنَّ الكذب يسري في الأحياء مسرى الدَّم فلا ننخدع ولا نُصدَم، وأنَّ الكتب أكثر ما تكون كاذبة ومُضلِّلَة. كان عليهم أن يخبرونا أن الدُّنيا نقصان في نقصان، وما أن تمُدَّ لساكنها بساطًا حتى تسحب من أسفل قدميه بساطًا آخر ، وأن الأحلام لا تصير كلها حقيقة ، فهناك فشل ، وهناك موت وهناك خذلان ..
كان عليهم أن يخبرونا ، أنَّ الطرق الملتوية كثيرًا ما تكون أسرع وأسهل من الطريق المستقيم ، وأنَّ الكلام سهل ، سهل جدًّا ، لذلك يفعله الجميع !
ربما كان أبو يحيى مُحِقًّا ، نحن غرْس أجدادنا ، لذلك كان الأنبياء أحسن الناس نسبًا...

على أي حال، تلقَّيْتُ اليوم رسالة يحيى التي كنْتُ أحترق من أجلها البارحة ، فلما قرأتُها لتُطفِئ فضولي كانت كالحطب على اللهيب توقده: "مرحبا مُجدَّدًا ، مراسلتي الخفيَّة...

حسنًا، قُلْتِ في رسالتك الأخيرة : (...سأكتفي أن أخبرك أني كنت مثلك أسير كل يوم في شوك الذاكرة وأنا أسيرة لحبي الراحل ،لكني الآن أفضل حالا ، لست بخير لكني أفضل حالا..."

حسنًا لقد أضحكتيني حينها حدَّ البكاء..

أنتِ لا تدرين شيئًا، لا تفهمين أي حرب كانت تبتلعني و من أين جاءني فيها السَّهم الذي سرق مني الحياة، ليست تلك الحرب التي خضتيها والتي يصبح فيها كل الأطراف خاسرًا بطريقة ما، حربي أنا كنت أخوضها وحدي لذا كنْتُ خاسرها الوحيد !

كُنْتُ أقف أنا أعزلَ من جهة،والقدر وكُلُّ الناس، يقفون أمامي، بيني وبين تلك المرأة الوحيدة التي خفق لها قلبي...

القدر قادني إليها ثم قادها هي إلى الفناء و التلاشي، ثم وقف الجميع يُصفِّقون كأنها نهاية مسرحية، رغم أن كل شيء كان حقيقيًّا بمرارة بالغة.

وانفض الجمع... وبقيْتُ أنا لأسمع وحدي أصداء الخيبة... دعينا لا نستبق الأحداث، هناك بعد الكثير لأرويه...

هل رأتني تلك المرة الاولى؟ لا...لم ترني، رجعْتُ إلى الخلف خطوات في هدوء، وغادرْتُ، ولا زال البيانو يعزف لحنها في رأسي.

كُنْتُ أقرأ كثيرًا عن العشق، في كتب غسَّان وشعر عنترة وقيس والرومي وروايات نجيب وإحسان و واسيني وغيرهم الكثير، لكني لم

أؤمن به يومًا. لم أفهم كيف يمكن أن يعتريني الخدر واللذَّة فقط لرؤية إنسان، وكيف أشعر بالدوخة والدوار من سماعه يتكلم، وكيف تصير الأشياء أجمل ويصير الماضي صفحة مُمزَّقة ويصير الغد بهجة كبيرة منتظرة، لكن كل هذا وأكثر شعرْتُ به، كان يكفيني فقط أن أسمع اسمها حتى أهيم في عالم من الأحلام والألوان لا ينتهي.

سألْتُ عنها غير زميل، لم يكن يعرفها أحد... شككْتُ أنها كانت حلمًا، طيفًا لم يكن إلا في رأسي، انتظرْتُ أن أراها ثانية لكن لم يحدث. كُنْتُ أجلس في مكاني وأرهف السمع لكن اللحن لم يكن يدور إلا في رأسي، يوم، يومان أسبوع ،أسبوعان، شهر ويوم، ويومان، وصباح يوم أحد، وشمس تُودِّع حضن الشرق، وهواء فجر بارد لم يشتعل بحرارة النهار وأنا وكوب شاي دافئ، وهدوء أحبه وصمت مكاني المفضل يحرس ضوضائي التي تحتل دواخلي، و ... ولحن سمعْتُه منذ شهر... يخترق أحجبة الصمت، يخترقني إلى أعمق أعماقي ليُخرِس كل ضوضائي، يفتح في قلبي غُرفًا مغلقة لم أدرِ حتى أنها كانت هنا من قبل، الزمن توقَّف، والعصافير التي كانت تملأ المكان بالزقزقة حبست أنفاسها... وقفْتُ وسِرْتُ ببطء نحو النافذة التي كانت تُطِلُّ على غرفة البيانو، إنها هي، هي ثانية... رأيْتُ وجهها هذه المرة... يا الله القدير! كيف نحتَّ هذا الوجه من صلصال الجمال؟! لطالما كانت عينا الفتاة نقطة ضعفي... وعيناها هي، واسعتان وصافيتان وسوداوان كبحر بلا قاع ولا شاطئ، مشحونتان بحزن كبير صامت قلبي الآن يخفق بقوة، كأنّي لازلْتُ هناك مُعلَّقًا على هذه النافذة التي تطل على أجمل ما رأت عيناي! غريبة ذاكرتنا حين تُغيِّر أشياء وتنسى أشياء، وأشياء أخرى تحفظها كما هي

حيَّة وشابة مهما مرَّت عليها السنين و حاول أن يشيبها النسيان، تلك اللحظة مطبوعة في ذاكرتي كوجه أمي لا تتشوَّه ولا تتغير ولا تُمحى.

ذاك الوقت الذي بين الانبهار الأول ،والاعتراف بكل شيء... ذاك الوقت هو أكثر مواقيت الحب لوعة وعذاب ،ولذَّة ! ذاك الوقت الذي تتقلَّب فيه على جمر الاشتياق فينكوي جنبك وظهرك لكنك تأبى النهوض والهروب

.. رغم أن كل السبل مفتوحة وكل الخيارات متاحة ،لكنك تختار - وبكل ماسوشيَّة - أن تذوب وتحترق ..

عرفت أخيرًا أن القراءة عن قصص الحب شيء، والوقوع في الحب شيء آخر... كالفرق بين من يمد يده حول النار ليستدفئ بها ومن يمد يده فيها ليحترق بها!

٣٦

...رأيتُها، وخرجْتُ وأنا أتساءل...من هيلينا؟؟ ومن فينوس ومن أفرودايت؟! لأول مرة أومن أنَّه يمكن للحياة أن تملك وجهًا جميلًا. حين رجعْتُ إلى المنزل كان سريري وثيرًا على غير العادة، لكني لم أستطع النوم؛ كان جسدي كُلُّه يذوب في وخْز لذيذ، شعرْتُ كأن حلقتي التي تخنقني تتَّسِع عن عنقي وغمامة الوحدة تغادر ظلّي، ربما حان الوقت لأصير سعيدًا، وأجد روحًا أنتمي لها وتنتمي لي، وصِرْتُ أتخيَّلُها، جالسة مكان هيلينا جميلة الجميلات بجوار الأمير باريس خلف أسوار طروادة، وتخيَّلْتُها نائمة في صدفة في قاع البحر مكان أفروديت إلهة الجمال، ثم تخيَّلْتُها مكان ميدوسا الجميلة قبل...قبل أن يُحوِّلَها أبولُّلو إلى جارجون مخيف، فتفتِنَ الرجال بسحر عينيها ثم تُحوِّلهم إلى حجر أصمَّ ..

انقلبْتُ على جانبي الأيسر، وملأني الخوف من تلك الصورة:هل ينتهي الأمر بقتلي؟ لم أحب امرأة من قبل...لكن...

لكن يحيى لا يُحبُّه أحد، ولا يقترب منه أحد، وفتاة بهذا الجمال لابُدَّ وأن ألف قلب وقلب يتمنَّاها، يتمنَّى حتى الحديث معها...

تقلَّبْتُ على سريري لأرقد على جانبي، لأرى (جبرائيل ماركيز) جالسًا على طرف سريري، وينظر إليّ في بهجة ويقول:" قد تجبرك الحياة على معاشرة أشخاص غير مرغوب فيهم قبل أن تلقى الشخص المناسب، فإذا حدث ذلك كن من الشاكرين".

نظرْتُ إليه بابتسامة لم أبتسمها منذ زمن وأغلقْتُ جفوني على صورة ذات الشعر الذهبيّ، التي لم أكن أدري بعد ما اسمها، نمْتُ طويلًا،

واستيقظْتُ على غير العادة مُفعمًا بالأمل، و رأيْتُ رضوى عاشور واقفة على باب الخلاء كما كانت تفعل أمي مبتسمة حاملة المنشفة وتخبرني أنه:"سيتأكَّد لي كل صباح أن في هذه الحياة يوجد شيء يستحق من أجله الحياة".

ثم عدَّلْتُ هندامي، و فتحْتُ الباب، و... وجدْتُ ذات الشَّعر الذهبيّ، واقفة أمامي، كانت تبتسم في صمت، ثم اقتربَتْ مني كأنَّها تُريد أن تُقبِّلَني، أغمضْتُ عيني نصف غمضة وفتحْتُ شفتي نصف فتحة، لكنها ما أن لمستني حتى تلاشَتْ، وتبخَّرَتْ في الهواء كحلم هارب...

في الجامعة، بحثْتُ عنها في كل مكان كالمجنون، لم أجدها، حضرْتُ محاضراتي دون أن أحضر، وتكلَّم الجميع ولم أسمع، ولم أتكلَّم ولم يُبالِ أحد، ثم انزويْتُ في ركني خالي الوفاض.

أشعلْتُ سيجارة، كان الجوّ باردًا والغيوم تشبه الموج. أخرجْتُ هاتفي، أردْتُ الاتِّصال بأحدهم، أيّ أحد، أردْتُ أن أتكلَّم لأتأكَّد أنّي حيٌّ بعد، كلما سلكْتُ طريقًا إلى بشر وجدْتُه مُشوَّهًا بالسراب كأني في كابوس طويل بطول العمر...

لكنَّ ظلًّا اقترب، وعطرًا أعرفه، وخفقان في قلبي كأنغام الدُّفِّ لم أعتد عليه بعد...

إنها هي، مرّت بجواري وجلسَتْ على مقربة منِّي، أخرجْتُ كتابًا، ووضعَتْ سمَّاعات الأذن في هاتفها وأذنيها و غرقَتْ في موسيقي لم تصلني منها سوى همهمة. لأوَّل مرَّة، أشعر بالخوف والرَّهبة من أنثى، ولأوَّل مرَّة أُدرِك أنَّ النساء لسن سواء، وأن الجسد جريء في طلب ما يريد،والقلب حين يريد فإنه يُفكِّر ألف مرَّة، و يصير أجبن ما يكون...

ولأنَّ يدي كانت دومًا أجرأ من لساني وأفصح، أخرجْتُ ورقة وكتبْتُ لها:"أنتي جميلة، ما اسمك؟"
وطويْتُها ومددْتُ يدي لأضعها بجوارها، لكنِّي شعرْتُ بالغباء والسخافة ؛تلك الجملة وتلك الطريقة في شقِّ ستر العشق ساذجة لا يفعلها حتى تلميذ خجول يعشق زميلته، وأنا رجل الميادين والساحات العشقيَّة ،أُحيي القلوب وأُميتها بقرب وبعد، وأحرق قلوب العذارى والثُّيَّب ولا أبالي...
وفي وسط ترددي ،ويدي التي تطول بالورقة وتقصر، وجدْتُ يدها هي تقترب مني بورقة مطويَّة، فتحتُها، وقرأتُها:"اسمك يحيى، أليس كذلك؟" انتفض قلبي فرحًا، اقتربْتُ منها، أخبرْتُها أن نعم، ابتسمَتْ واحمرَّتْ وجنتاها، ورفعَتْ يدها اليسرى لترفع بأطراف أصابعها خصلات شعرها فوق أذنيها، حينها انتبهْتُ لذلك الجهاز المُثبَّتْ بعناية وخفاء حول أذنها، لم تتكلَّم، سألْتُها:"ما اسمك؟"، أخذَتْ الورقة من يدي وكتبَتْ :"....." حسنًا...يدي أضعف وأكثر ظلمًا وظلمة من أن تكتب اسمها...
لن أكتبه...
على كل حال عرفْتُ أنَّها لا تتكلَّم، امممم لا تتكلَّم...

٣٧

تلك الورقة، لم أكن أدري أنِّي سأتعذَّب بالنظر إلى هذه الورقة إلى الأبد كما يتعذَّب المُرابون في جحيم دانتي بالحملقة الأبديَّة في أكياس نقودهم... تأمَّلْتُ جِلستها الأنثويّة الخجلة، لأوَّل مرَّة اشتهي فتاة بقلبي، وأتمنَّى لو كان كل جسدي قلبًا فقط ليحوي ما سكنني حينئذٍ من عاطفة...

وُلِدَت ضعيفة السَّمع و بلسان عييّ، وبمساعدة الأطبَّاء بدأت تتكلَّم، لكنَّ الحروف لم تخرج قط من مخارجها فظلَّ في كلماتها عِلَّة. كانت سخرية أقرانها من كلامها تلذعها؛ لذا قرَّرَتْ منذ كانت بالعاشرة ألا تتحدَّث ثانية أبدًا، وتصنع لها إصبعين آخرين: القلم وفرشاة الرسم، تحكي بهما ما تشاء. وحين ترغب في الثرثرة، تطرح جهاز السَّمع خاصتها جانبًا، وتلتقي بأصابعها مع أصابع البيانو، ويتبادلان حديثًا يملأ صمت كونها صخبًا...

لطالما كانت العبقريَّة الجميلة،النابغة التي تجيد الكتابة والموسيقى والرسم. كانت تشبهني ، وحيدة مثلي ،غريبة مثلي...

كان شيء ينمو بداخلي على مهل، وشيء يتغيَّر بخارجي على مهل، و...

الخمر نفد، وما نفدَتْ كلماتي، وتروح يدي وتجيْء وسط خرائبي في تردُّد، ربما لا ينبغي أن أخبرك عن حبيبتي الضائعة، أريد أن أخبرك فقط أنِّي لا أريد تعاطفك ولا عاطفتك، لا أريد منكِ شيئًا، حتى لو كنتِ لا تريدين الكتابة اليّ فلا بأس، ولو أنَّكِ اكتفيتِ من كتابتي

فأخبريني ولا بأس، سأتفهَّم سَأَمَك، وسأتفهَّم عدم فهمك، ولن أزيد في بئر عذابك شربة.

و كما قال عم غسَّان: "الكلمات عبث ،

وستظلّ هي لغتي التي لا يفهمها أحد!

٣٨

تابع يحيى في رسالة جديدة:

"الجوع هو ان تريد، انه رغبة أشمل من الرغبة، ليس الإرادة التي هي قوّة، كما أنَّه ليس ضعفًا لأنَّ الجوع لا يعرف الخنوع، فالجائع هو من يسعى".

(إميلي نوثومب)

إميلي كانت حياتها كلها تتحرّك بالجوع: الجوع للطعام والجوع للشراب، الجوع للنجاح، الجوع للحب وللشهوة وللرجال...
وكما حياتها تحرَّكت بالجوع فأنا حياتي كلها توقفت بالتخمة، رغم إني لم أكل شيئًا ولم أنجح في شيء ولم أشتهِ شيئًا، وحين أحببْتُ لم أُحِبَّ حدَّ الامتلاء، بل حدَّ التصدُّع والخسارة، كأنّي تناولْتُ قطعة من كل صنف طالتْه يدي، و لم أكملها فلم أشبع من صنف بعينه، لكنّي صِرْتُ مُتخَمًا بكلِّ هذا النقص فزهدْتُ في الدنيا وكل ما يمتُّ لها بصلة.

إنّي أُدرِك الآن، أنَّ الموت أسهل بكثير من الحياة، لذا فمن يُحِبُّك حقًّا لا يخبرك أنه سيموت من أجلك، بل يخبرك أنَّه سيحيا من أجلك... سيعيش ويتحطَّم بجوارك ألف مرَّة ليحميك من التحطُّم، ويموت في مِحراب أمانك ألف مرة وهو بعد يتنفس، ويرضى أن يتقمَّص ألف دور و يعتلي خشبة المسرح الكبير ويرقص أمامك ليُضحِكك وإن كان يحرقه الدَّمع المكبوت إلى أن يذرفه بمفرده خلف الكواليس...

التضحية الحقَّة أن تُغلِق جميع الأبواب الخلفيَّة ومنافذ الهروب، وتجعل الموت حدثًا عرضيًّا يمكن معالجته ومناورته وتأجيله، وهذا ما

فعلتُه؛ لأنّي أحببْتُها حقًّا. أردْتُ وجودي، بل أحببْتُ وجودي، كان عليَّ أن أكون دومًا هناك لأجلها، ولأجلي ... ولأجلي أوَّلًا...

كانت سببي وروحي الجديدة التي سكنتْني. ذاك الفتى الشرير الذي يشبه إنسان الغاب، بلحيته المشعثة كألسنة اللَّهب، وشعره الغزير المبعثر حول رأسه الضخم. ذاك الفتى البذَّاء المنعزل والمسكون بالكره والقلب السقيم، بدأ يتحوَّل على مهل في شرنقة الخجل.

حلق لحيته، فأعجبها سمته الجديد كثيرًا. ما أشدَّ سعادته حين كتبَتْ له على جهازها اللوحيّ:" هكذا أفضل بكثير"!

تلك الشفاه المُتحجِّرة بدأَتْ تعرف كيف تبتسم، ذاك اللسان بدأ يعرف كيف يُلقي السلام ويسأل الناس على الأحوال، ويتحدَّث بحديث المُهذَّبين الذي لطالما استهجنه صاحبه واستحقره. تلك الشمس، بدأَتْ تعرف كيف تشرق، وذاك النور عرف طريقه إلى قلبه وسط كثافة الغيوم...

كُنْتُ أرى فيها صديقتي، وحبيبتي، وأمي! تقبَّلتْني واحتوتْني كما احتوتْ خديجة مُحمَّدًا، ووثقت بي كما وثقت هاجر بإبراهيم...

كُنْتُ إذا أخرجْتُ من جيبي سيجارة وأنا برفقتها تفتعل السعال كي أطفئها، وكنْتُ أطفئها على مضض، فتكافئني بابتسامة رقيقة، ونظرة من عينيها تثرثر لعيني بحديث الحب الخفي اللذيذ...

كُنْتُ أشعل سيجارتي وحدي، فإذا رأيْتُ منها رسالة على هاتفي وجدْتُني تلقائيًّا أُطفِئ السيجارة، وذات مرَّة كنَّا نمشي بصحبة القمر خلف ستار الليل المزدان ببياض الغِيام،سألَتْني عابِثةً على هاتفها اللوحي عن علبة سجائري لأنها تريد أن تُدخِّن سيجارة، فأخبرْتُها أنّي لا أحمل واحدة،

كتبَتْ:"هراء! أنت دومًا تحمل واحدة!"
قُلْتُ:"ليس اليوم ولا بعد اليوم، لقد أقلعْتُ."
نظرَتْ إليّ في دهشة ممزوجة بالفرح، قُلْتُ:"أقلعْتُ من أجلك"
توقفَتْ، وهبَّتْ إلى حضني كطفلة صغيرة تغوص في حضن أبيها بعد سفر. ضمَّتْني بشدَّة ودِفْء، ولأوَّل مرَّة أسمع من ثغرها كلمة. كانت أحرفها كطفلة تتعلم النطق، و كان صوتها كالسحر. اقتربَتْ من أذني وقالت:" أُحِبُّك!"

كأنَّ الغيم قد تواطأ مع القمر الكبير وحُبِّنا الغضّ، وأهطل مطره علينا في غفلة مِنَّا. ابتعدَتْ إلى الوراء قليلًا و نظرَتْ في عينيّ نظرة كسيرة نادمة. رجعَتْ إلى الوراء، اشتدَّ المطر، كأنَّ (أودين) و(ثور) و الغيم المُلبَّد ينهرونها أنِ ابتعدَتْ. بدَتْ نحيلة وضئيلة وضعيفة، خجلة وخائفة كأنَّها تقف عارية. كُنْتُ أعرف أنَّها ليست خجلة من كلمة أحبك، لكنَّها خجلة من قولها لها، من المخارج التي لم تسعفها لتنقل إلى مسمعي كلمة صغيرة كهذه بطريقة صحيحة.
لم أملك نفسي أن هبْتُ نحوها أنا الآخر، عانقْتُها بمباركة كيوبيد، همسْتُ لها وسط زخَّات المطر:"ما أعذب صوتك! من الليلة فصاعدًا لن تخفي عني ذاك السحر ...و... أُحِبُّك!"

كُلُّنا نخفي ثلمة، ونقصًا لا يتفتَّح إلا في حضرة من نُحِبّ؛ لأنَّنا في دواخلنا ندري أنَّه هو الأحد الذي سيرى نقصنا هذا كمالًا. لطالما كان التعرِّي عذابًا، لذلك سُكَّان الجحيم يتعذَّبون عرايا، وسُكَّان النعيم يلبسون ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق، ولذلك كان أوَّل عذاب آدم وحوَّاء أن عرَّاهما الله من لباسهم أمام الملائكة والشيطان...

لكن، من نُحِبّ -وفقط من نحب- يكون التعرِّي أمامه غاية وغواية، تمتلكنا الرغبة الجامحة في التعرِّي أمامه من كل أقنعة الوهم السخيفة الثقيلة؛ لأنَّه الوحيد الذي يملك الحق أن يتفحَّص هياكلنا الخفيَّة المنحوتة من الحقيقة...

أضلعها النحيلة، كانت ترتجف كأضلع هِرَّة أعياها البرد والخوف. شعرْتُ بدبيب القوَّة يسري فيّ. امتلكَتْني تلك الفكرة أنَّه عليّ أن أكون قويًّا من أجلها ،أكثر قوة من أي وقت مضى. شعرْتُ أنَّها قطعة منِّي، أنَّها ابنتي!

أخذَتْ بالسعال، إنَّه البلل والبرد لا محالة! احتميْنا بمقعد مسقوف على جانب الطريق يُلحِّفنا الظلام، لكن سعالها لم يهدأ، أخرجَتْ دواءًا للسعال من حقيبتها وعبَّتْ منه عبًّا، استبدَّ بي القلق، أصرَّتْ على المغادرة...

في بيتي، كان داخلي مُمزَّع بين الحبور والقلق. خلعْتُ قميصي المُبلَّل قرَّبْتُه من أنفي لأشتمَّ بقايا عطرها العالقة، لكنِّي تنبَّهْتُ إلى تلك البقع الصغيرة المتناثرة ذات اللون الأحمر الذي بهت بفعل البلل، تملَّكَني الفزع، ولا أدري لِمَ تذكَّرْتُ أُمِّي حينها؛ ربما لتلك الليلة التي سهرْتُ بجوار سريرها لأعالجها من حمَّى شديدة، فكُنْتُ أضع الكِمَادَة خلف الكِمَادة على جبينها الأبيض، وفي كلِّ مرَّة يبتلُّ شِبرٌ من كم بيجامتي، وبين المرَّة والمرَّة أُصلِّي لله وأدعو، وأرى الرسول مُحمَّدًا-صلَّى الله عليه وسلَّم-جالسًا على طرف السرير، يتلو حديثًا تعلَّمْتُه لتوِّي في المدرسة ،لما سأله أعرابيّ:" من أولى الناس بصحبتي؟" قال:"أمك"، ثلاث مرات،

ثم بالرابعة قال:"أبوك". لم أكن أُحِبّ نهاية الحديث لأنها كانت تُكلِّفُني ما لا أطيق!

ما كُنْتُ أفعل كُلَّ ذلك إلا إني كُنْتُ أُقلِّد ما تفعله هي حين أكون أنا المريض...

لما أفاقت كِدْتُ أطير من الفرح، وقالت: "أُحِبُّك يا طبيبي الصغير!"

ربما لذلك تذكَّرْتُ أمي، وفزعْتُ إلى الهاتف أُراسِل حبيبتي بما رأيْتُ، لم تجب، اتَّصلْتُ ولم تجب، كان قلقي أكبر من نومي وانتظاري إلى الصباح، لكن ما كان بيدي حيلة.

قابلْتُها في ركني المنعزل. أخبرْتُها بما رأيت، وسألْتُها عن سعالها وعن الدَّم. أخبرتني أنَّه التهاب شعبي لا أكثر، والدَّم من أثر السعال الشديد. كذَّبْتُها فأصرَّت، شنقْتُ أسئلتي وسكتّ. علمْتُ أنَّها لم تكن تدَّعي السعال حين كنْتُ أشعل سيجارتي، وعلمْتُ أنَّ جسدها الآخذ في النحول والذبول لم يكن طبيعيًّا، وأنَّ لونها الذي يزيد شحوبًا لم يكن طبيعيًّا، وعلمْتُ أن قلقي كبير وأنَّ مرضها أكبر، لكنَّا في صمت تواطءْنا على الصمت، خاصّة إنها منذ حينها بدأتْ تتحسَّن بالفعل، وبدأتْ نوبات السعال تقلّ شيئًا فشيئًا، وبدأَتْ الطّمأنينة الكاذبة تزحف إلى داخلي كلما ازداد لونها تورُّدًا.

ومرَّتِ الأيام، فالشهور، وأنا لا أدري أنَّها تمرُّ علينا لا بنا، كل تلك الصباحات والأمسية التي ضمتنا سويًّا، والكلمات التي ذابت بيننا حتى سارت مِنَّا مسرى الدم...كنْتُ أتعرَّف إلى العالم مرَّة أخرى بعينيها وأذنيها وقلبها، لا أعرف ألأنّي عشقْتُها أم لأنَّها قدِّيسة مريمية، أو نبيَّة، أو ساحرة تُحوِّل كل الخرائب إلى عمران مشيد!

أقنعتْني أن أمدّ الجسور إلى الناس وأثق بهم، وأتعايش معهم، وأقبلهم على عيوبهم وسذاجتهم، علَّمتْني أنّي حين أقول أنَّ البشر أغبياء فاني أُبالغ، ومن يبالغ يكذب، ربما ليسوا جميعًا أغبياء، ربما كانوا جميعًا كذلك لكني منهم، ربما كانوا هم الأذكياء وأنا الغبي، فالغبي هو الذي لا يدري كيف يعيش ويُدبِّر أمره...

أرادت أن أتخلَّص من غروري الذي كان يعميني ويُسوِّر وجودي بالأسوار و القلاع لأحميني من أعداء وهميين أخترعهم في عقلي... لكني في غمار ذلك كله، كنْتُ أتعلَّق بها هي أكثر من أي شيء آخر، وانصهر كل منا في عالم الآخر حتى تشابكنا وتعقَّد كل شيء...

صارت هي المرأة التي يدور حولها زمني وحكايتي، الأمر أكبر من امرأة مرَّتْ بي ومررْتُ بها، إن الأمر مُلعبَك ككرة خيط، كبيت عنكبوت.

كلما ازددْنا لُحمَةً ازداد خوفي،

الأحلام المبتورة، كانت تُفزِّعني في يقظتي أكثر من كوابيس نومي...

ذاك الرجل، بطل رواية "آخر أيام مدان" لفكتور هوجو، كنْتُ أراه دومًا يتحدَّث بتلك العبارة التي كتبها قبيل إعدامه، والتي علَقَتْ في ذهني ولم تكفّ قط عن الوميض:"يا لطفولتي الجميلة! ويا لشبابي الجميل! إنهما يبدوان لي الآن كقماش مُوشَّى بالذهب وأطرافه مُدمَّمَة!" القصص العظيمة تنتهي دوما في حضن التراجيديا والدموع، ربما كنْتُ متشائمًا، ربما أضعفني التشاؤم، لكني كنْتُ مُحقًّا..!"

٣٩

منذ البارحة وأنا تخونني الكلمات، أريد أن أعطيه أملًا لكن الأبجدية تهرب مني ثم تقف أمامي وتشير إلي أنّي كاذبة. كتَّفْتُ الحروف، أغرقْتُها في الحبر حتى كفَّتْ عن مقاومتي، سجَّيْتُها على ورقي وكتبت:

" اكتشفْتُ فجأة كم أنا وحيدة في هذه الدنيا ..قد لا يكون غياب شخص مُهِمًّا، كلّنا سنذهب يومًا، المشكلة في هذا الفراغ المهول الذي يتركه وراءه، ويحتاج إلى زمن طويل لترميمه، هل العمر يسعف بعد كل هذا الزمن ؟؟"

واسيني الأعرج

هناك أشياء يجب علينا أن نوقظها مرارا وتكرارا ، وإلا فسيذبلها النسيان، ولو راحت طيَّ النسيان ربما سنكون أفضل وأكثر إقبالًا على الحياة، لكنَّنا سنكون خسرنا أجزاء من أنفسنا وأزمنتنا لا يمكن أن تُعوَّض، نحن البشر مصنوعون من ذاكرتنا المُنهَكَة...

لا تحاول أن تنسى يا يحيى، لكن حاول أن تتعايش حتى يندمل جرحك. العالم مليء بذوي الضحكات المُفتعَلَة والضمادات البالية التي تغطِّي جروحًا يأكلها الصديد، لقد عشْتَ حزنك بما فيه الكفاية، أربع سنوات كاملة تدور في فلكها ككوكب ضال يدور حول شمس قد انطفأت منذ زمن بعيد. عليك أن تنهض وتثور على حزنك لا على ذاكرتك، وعِش بالذكرى مع امرأة أخرى تفهمك وتحتوي شرودك.

صدقني يا يَحيَى، عتبات الماضي بلا أبواب، والوحدة ليست حلًّا والانطواء ليس حلًّا، وتعجُّل الموت لن يجبره على الإسراع، ربما كنت

أصغر منك سِنًّا لكن عذابي كان كبيرًا بما يكفي لأسبقك إلى حواف الجنون، وآتيك من هناك وأخبرك، أنه لن يساعدك أحد سوى نفسك، ولن يأخذ بيدك سوى يدك الأخرى، لا الأخ ولا الصديق ولا الطبيب النفسي، إنَّه فقط أنت!

أشعر تمامًا بك، وأشعر بتلك الهُوَّة السحيقة التي تفصلك عن الناس والتي خلقت معك وكلما كبرت وظننْتَ أنَّ قدميك ستحملانك في قفزة إلى حافتها الأخرى وجدتها ازدادت هي الأخرى عمقًا واتساعًا كأنك تحفرها بسنين عمرك، لكن الأمر بالنهاية قرار، لو قفزت ربما تصل إلى الجهة الأخرى وربما تبتلعك الحفرة بلا رجعة، لكن لو ظللْتَ مكانك فستفنى في صمت دون أن يشعر بك أحد!".

٤٠

في رسالتي كُنْتُ أكذب ، وقد دفعْتُ ثمن كذبي وتجمُّلِي غاليًا ، أجابني يقول :

"الحب والموت يُغيّران كل شيء " هكذا يقول غسَّان الحيّ... الغريب أننا وقعنا فريسة كليهما، شملني الحب فتغيَّرْتُ، ثم أصابني الموت فتغيَّرتُ إلى ما كُنْتُ عليه قبل الحب وزمان الأحلام والورود، وجودي دار الدائرة كاملة حينما كان ينبغي أن يدور نصفها فقط...

و ...

تظُنِّين أنكِ تعرفين، تظُنِّين أنكِ تفهمين ذاك الكسير الذي يُراسِلك بالحبر والخمر والدم، لكنك لا تعرفين شيئًا، ذاك الكسير هو الجحيم ، أنا الذي يتلوَّى الشيطان في جوفه ليقي جنبيه لَفِيح النَّار! أنا الذي أَوَدُّ لو يُسَعَّر على أناملي العالَم حتى يتفسَّخ ويترمَّد ويتلاشى! أيتها الفتاة المهبولة! إياكِ أن تظنّي بي الخير حين رأيْتُكِ تتلوّين كراقصة ثم تسقطين وترغين وتزبدين كفتاة تلبَّسْها إبليس، ثم تتعرّين في وَضَح النَّهار وفَضْحِه لأرى بياض جسدك. نعم أسعفْتُكِ حينها وحملْتُكِ إلى المشفى، لكن لا تظنُّي بي الخير؛ كلّ ما في الأمر أنّي لمَّا رأيْتُكِ في خضم هذا تذكَّرْتُ حبيبتي الرَّاحِلة وهي تتلوَّى تحت سكاكين الألم، ولولا ذلك لما تحرَّكْتُ من مكاني قيد أنملة، ولتلذَّذْتُ بشرب الشَّاي والتأمُّل في ما ظهر من جسدك الغض الشهي ، ولربما سجَّلْتُ كل ذلك الجنون على هاتفي لأتمتَّع به لاحِقًا بمفردي .. و .."

لم أُكمِل الرِّسالة ..مزَّقْتُها وانزويْتُ في ركن ، وبكيْت ..

٤١

رحمني الله الرحيم من البكاء بأن أرسل إلى أجفاني النوم، ثم استيقظْتُ بلا روح، لملمْتُ أوراقي وأشلاء نفسي، وكتبْتُ :

"كل شيء كان يسقيني العذاب قبل أن أراسلك، والآن صِرْتَ أنت ككل شيء. قلبي لم يعد به مكان لندب جديد، إنه بالكاد يَخفُق ليبقيني على قيد الحياة القاسية ككلماتك.

أكتشف كل يوم أني أكثر حماقة من اليوم الذي يسبقه، ماذا كنتُ أنتظِر منك؟؟ لا أعرف، حُبًّا، اهتمامًا، شفقة، ربما...لكني لم أتوقَّع تلك القسوة أبدًا...

ذاك الفتى الذي أحببْتُ قبلًا، ذاك الذي أبكاني أكثر شيء، و أضعفني أكثر شيء، وذبحني بسكين تَلِم يشبه كلماتك...لك أن تتخيَّل كيف يُمكِن لفتاة ساذجة مثلي تسير لَصْقَ سور جسر الجامعة، وقلبها يتقافز في صدرها من اللهفة للقيا حبيبها الذي قاطعها لشهرين وأكثر بلا أسباب، ثم عاد على دقَّة هاتف مُفاجِئة، وبصوت حازم وجافٍّ يقول "نحتاج أن نتكلَّم!"

نحتاج أن نتكلَّم، يقولون إن العِلاقات تبدأ ب"لا أجد كلمات تُعبِّر عن حُبِّي "... وتنتهي ب "نحتاج أن نتكلَّم!"...

لم تكن تدري ذلك...

تبتسم حين تراه ، تُرِيد أن تصفعه على وجهه لغيابه الطويل، ثم تقفز بين ذراعيه وتبكي كابنة حُرِمَت من أبيها، ظنَّتْه ميِّتًا، ثم وجدَتْهُ فجأة أمامها...

كانت في حاجة إلى عناق طويل، لكنّه كان يحتاج أن يتكلَّم...
وَقَفَتْ أمامه، اكتفتْ بالابتسام والدُّمُوع المترقرِقَة في خوف، ذلك الوجه كان مختلِفًا، مُسطَّحًا كأنه قد صُنْفِر قهرًا من كل شعور، هي لم تلمسه لكنها تيقَّنَت أنها لو فعلَتْ لوجدَتْه بارِدًا كلوح جليد. عيناه التان كانتا دومًا تنظران إلى عينيها في عشق وَ ثِقَة، كانتا هذه المرَّة تنظران في الأرض كأنَّ أجفانهما مُثقَلَة بعارٍ ما...

أذكر كل شيء.. كُنَّا في حرّ أغسطس، لكن نسمة من الهواء العليل هبَّت على غير العادة و داعبَتْ خدّي، تُنذِرني بلا فائدة أن كل شيء الليلة سيجري على غير العادة...

قلبي حدَّثَني في تردُّد أن هناك خطْبًا ما، ربما إعصارًا سيهبُّ من ذاك الفم الرجولي الواسع الذي يبعد عني مسافة النصف متر، ليست بالمسافة القليلة، أُفكِّر الآن، ربما كان يأخذ احتياطاته للهرب، أو صدّ هجومي إذا ما دفعتْني كلماته أن أُطبِق يدي على حنجرته، أو أدفعه إلى أعماق النيل...

مُتَّكِئًا على السُّور، ناظِرًا إلى الرَّصِيف أمامه ، قال:

"اعذريني ، لن يمكن لعلاقتنا أن تستمرّ؛ لقد كذبْتِ عليّ و أخفيْتِ عنّي أمر مرضك بالصَّرَع".

لا أدري لِمَ قفز إلى مُخيِّلَتي حينها مشهد الطائرة التي اخترقت برجَي التجارة العالميَّين في نيويورك في مطلع الألفية؛ ربما لأن ذاك المشهد هو أقوى المشاهد الملحميَّة التي احتلَّت رأسي وذاكرتي منذ طفولتي وحتى تلك اللحظة، سكَتُّ برهة، خلالها كفَّ فمي عن الابتسام، وانفتح

نصف فتحة بتلقائية شديدة وبدأت الدُّمُوع التي ترقرقت باللَّهفة منذ لحظات، بدأت تحفر خدي. تابع:

"ليس السبب في مرضك، لكنّ السبب أنكِ كذبتي، ومن يكذِب مرة يكذب ألف مرة، ما أدراني أنك لا تُخبِّئِين عني أشياء أخرى، ما أدراني أنكِ ربما على علاقة بغيري؟"

حينها ، كان برجا التجارة قد انهارا في رأسي، أو فوق رأسي. قلْتُ له من تحت الأنقاض:" لم أقل لك لأني كُنْتُ أخشي ردة فعلك، خفْتُ أن تتركني، كما أنت تفعل الآن لكني كنْتُ على وشك إخبارك، لولا أن رأسي المُكهرَب سبقني وشنَّجَني أمامك..."

قال في حِدَّة كأنه رجل:" كذب، كلام فارغ، لم تكن تنوين أن تُخبريني ألبتَّة، لقد أهنتِي كرامتي وأثبتِّي أنكِ لا تحترميني ،وإن ضاع الاحترام ضاع الحب. "

أهنْتُ كرامته ، ولا أحترمه ..

أهنْتُ كرامته ، ولا أحترمه ..

لم أجب، اكتفيْتُ بالبكاء الصامت، بلعْتُ ريقي فشعرْتُ بحجر ثقيل ينزلق معه إلى غور صدري،حجر ينوي البقاء لفترة طويلة ،طويلة جدًّا ..

وفجأة قفز إلى ذهني مشهد تلك الفتاة التي وقعَتْ في حب ليوناردیو ديكابريو حين جسَّد دور الطيَّار، ثم عرفَتْ أنَّه زير نساء لا يمتلئ، فسرقَت سيَّارة وباغتتْه وهو بصُحبَة إحداهن، واندفعت بها نحوه لتدهسه وهي تتمزَّق بُكاءًا وصراخًا كالمعاتيه، لكنَّه نجا من خبلها بأعجوبة كبيرة...

تذكُّرتها؛ ربما لأن تلك المُمثِّلة كانت تُشبِهني كثيرًا، ولأني كُنْتُ كلما رأيْتُ المشهد أشفقْتُ عليها وبرَّرْتُ لها فعلها المجنون إما بدافع من التواطُؤ النسائي، أو لأنه قتلها قبلًا بخيانته فيَحِلّ لها أن تثأر لنفسها، أو لحدس خفيّ أخبرني أني سأكون في مكانها المشئوم يومًا...

لكنها لم تُفلِح في قتله؛ لأن الدُّنيا ظالمة بقدر عدل الآخرة، وأنا لم أُفلِح في قتله لأني لم أُحاوِل،اكتفيتُ بالذهول والبكاء والصمت، ثم العودة القهقري خُطوَتين ثم الاستدارة كأني أحيّي الجمهور وأنصرِف في مسرحية هابطة لم تُعجِب أحدًا، وعدْتُ بقدمين لا تنتميان لي ولا لدرب...

لقد قُتِلْتُ هناك، على ذاك الجسر، وشهد الجريمة بشر كُثُر، ولكانت الجريمة مُحقَّقَة ومُثبَتَة لولا أن سلاح الجريمة لم يكن موجودًا...الكلمات،

كلماته هو ..

ذبحَتْني ثم تبخَّرَتْ ..

"نحتاج أن نتكلَّم "...قال:"نحتاج"...وكان أولى به أن يقول:"أحتاج"، أنا لم أحتَجْ لهذا كله، لم أحتج أن يغزو حياتي في البداية، ويُحاصِرني ويحتلَّني بالكلمات، ويُوطِّد مُلْكَه على نياط قلبي بالكلمات، ثم يقتلني ويهرب بالكلمات!

ليتني كنْتُ صمَّاء!

وأنا أقرأ رسالتك الأخيرة تمنيْتُ أن أكون عمياء أيضًا، ليتك كذبْتَ مثله، وادَّعَيْتَ مثالية لا تملكها، لكان الأمر أهون عليّ...

مزَّقْتُ رسالتك وقرَّرْتُ ألَّا أكتب لك، وها أنا أكتب لك؛ لا لشيء إلا لصوت مبحوح في ركن خفي في، يُخبرني أنك لم تعْنِ ما قُلْتَ...
ربما تريد أن تتمَّ بناء السُّور الذي يحيطك و اخترقْتُه أنا من فجوة فيه، فجوة تُشبِهني. أو هكذا هُيِّء لك...
لكن على أي حال ستكون هذه رسالتي الأخيرة، وستكون رسالتك التي مزَّقْتَها آخر رسالة أقرأها منك؛ لأني لن أتحمَّل أن أقرأ رسالة منك تهزأ مني فيها لانعدام كرامتي لأني راسلْتُك ولو رسالة أخيرة بعد كلماتك المُتفجِّرة الأخيرة ...
أردتُّك فقط أن تعرف أني أحمل رَجُلًا ميِّتًا في قلبي، مَيِّت، لكنِّي أحمِله، أحمِله في نومي ويقظتي وحِلِّي وترحالي، لا يُفارِقني، إلى أن مات معه كل شيء فيّ. لم أعُد أُبالي، ولم تعد الكلمات تشرخني إلى هذه الدرجة، وإن كانت لا تخلو من الألم...
وداعًا...
لا لن أُودِّعَك... الوداع للقريبين، وأنت الآن خلف كل الصفوف!

٤٢

"نعم نكتب لأننا نريد من الجرح أن يظل حيًّا ومفتوحًا .. نكتب لأن الكائن الذي نحب قد ترك العتبة وخرج ونحن لم نقل له بعد كل ما كنا نشتهي قوله...نكتب بكل بساطة لأننا لا نعرف كيف نكره الآخرين أو ربما نكتب لأننا لا نعرف أن نقول شيئا آخر".

واسيني الأعرج

تركْتُ أسبوعًا مُرًّا يمُرّ، لم أتمكَّن من الصمود أكثر من ذلك... وكالعادة وقعْتُ فريسة الغياب، وغلبني إدماني لرسائل يحيى المُعبَّقَة بسجائره وخمره وحزنه...

في أتعس لحظاتنا، في أضيق طرق الكرامة حيث لا يُمكِننا الالتفات للوراء، نصنع لنا أملًا نتعلَّق به ونشتاق إليه ونعيش عليه، إنها الخدعة التي تخدعنا بها فطرتنا كل يوم لتوقظنا بها من النوم والموت، أن هناك أمل علينا انتظاره، وذاك الرُّكن الخفيّ وأوراقه المُخبَّأة صار أملي، ونداءًا لا أقوى أنا الضعيفة على تجاهله.

أرغمني رغم كل شيء أن أترك ذؤابات كرامتي وأهرول نحو الرُّكن الخفيّ أُفتِّش عن رسالة منه... وأُخبِّئ-بلا إرادة -نِيَّة بداخلي أنِّي لو لم أجد منه رسالة أن أترك أنا له رسالة أُوصِل به ما قطعْتُه برسالتي الأخيرة، لكن ما أشد حماسي حين لمحْتُ طرف الورقة المُخبَّأة، نزعْتُها في عَجَل وقرأْتُ:

"هل عليَّ أن أعتذر؟أم أمضي في حكايتي كأنَّ شيئًا لم يكن...
أنا أُجِيد ذلك...والأمر أسهل بكثير حين يكون الحديث على ورق لا باللِّسان والأعين...والأمر أسهل وأسهل حين أظن أنَّكِ لن تتلقّي رسالتي هذه لغضبك وصدمتك، وأني من الآن فصاعِدًا أُراسِل الخواء، أُجِيد مُراسلة الخواء أيضًا...

ربما عليَّ أن أعتذر ، لكنِّي على أيَّ حال لن أفعل؛ الخمر هي من كتبَتْ لكِ آخِر مرَّة...

القهوة الآن تكتب لك؛ لا لشيء إلا لأني يجب أن أكون الآن يَقِظًا أكثر من أي وقت مضى...

غريبة لغتنا مثلنا، القهوة تعني في العربية الخمر، لكِنَّنا اصطلحنا بغير قصد على أن نُسمِّي بها ذاك المشروب البنيّ الذي يُوقِظ حواسَّنا ويُلهِب فينا حُمّى التَّذكُّر والسَّهَر...

هل زاغ قلمي؟ كالعادة فعل ..

لسْتُ جبانًا...أعرف أنَّكِ تُفكِّرين في أنِّي الآن جبان لأنِّي أُلقِي باللَّوم في كل شيء أفعله على الأشياء التي تُحِيط بي لا عليّ، كأنِّي إنسان مسلوب الإرادة، ومُستَعْمَر بأشيائه التي لا تنتمي له، هل تظنِّين ذلك؟...حسنًا لسْتُ جبانًا، لكنِّي ضعيف وخائِر القُوَى، وتلك الأشياء التي حولي لا تنتمي لي، لا أعرفها، لكن لها سلطان خفي، وتمتصُّ مني ما تبقَّى من حياة...حتى ذاك الشيطان الرَّاقِد بداخلي، لم أفتح له بابًا، لكنَّه اقتحمني وفرض جحيمه علي، نحن لا نختار أقدارنا لكِنَّ أقدارنا هي التي تختارنا، أليس كذلك؟

لن أُطيل ..

كانت تُحِبّ مادَّة التَّشريح...
وكانت تريد أن تصير جرَّاحة، هل كانت تريد حقًّا ذلك؟ أم إنها فقط كانت مأخوذة اللُّبِّ بذاك الجرَّاح العظيم صاحب الشعر الطويل المُبعثَر ، صاحب الاسم المأخوذ من مواد طينته، الحُسْن والخير...
كانت تُحبّه حُبًّا جمًّا حتَّى أنّي كنْتُ أغار منه، تُسابِق طلبة الدُّفعَات الأخيرة في حضور محاضراته، تستقي دروسه في نهم، تكاد لا تدع يومًا يمرُّ حتَّى تلتقط لها الكاميرا صورة برفقته... وتُرافِقه مشيًا من قاعة المحاضرات إلى حجرة الدّروس العمليَّة خاصَّته وقد أحاط به الطلبة من جميع السنوات يسألونه عن العلم ويسألهم عن الحياة، كأنه (أرسطو)، المُعلِّم الأوَّل برفقة تلامذته المشَّائِين...
ربما لو أقرضنا الزمان سنينًا أخرى لعرفْتُ هل ستختار أن تصير جرَّاحة حقًّا أم إنها كانت محض أُمنيَّة طائشة...
لكن الزمان لم يفعل، ومرَّ كل شيء سريعًا...
وجاءت النهاية مُباغِتة، وغير مفهومة، شعور يُشبِه أن تقلب الصَّفحة في رواية رائعة فتكتشف أنها كانت الصفحة الأخيرة!
خواء كبير ورغبة عارمة في أن لو تملك القدرة أن تصل لذاك المُؤلِّف وتسأله، وماذا حدث بعد ؟.. رغم أنك تدري أنه لا شيء بعد!
حسنًا ،
النهاية..
غرفة العناية المُشدَّدَة...
الأَسِرَّة ممتلئة، السُكون تام، يخترقه طَنَّات مُتباعِدة من أجهزة التنفُّس والمُتابعة...

مريض مُكبَّل إلى حافَّة السَّرير بقطع من الشاش...وفمه مكتوم بالأنابيب... كأنَّه سجن مُشدَّد ... و...

وهي...مُستلقِيَة أو مُلقَاة على سرير، المُمرِّضَات يَسِرْن بجوارها دون أن ينقطع هزلهن وضحكهن، لا أحد يلتفت إليها كأنها فراغ أو شبح لا يراه غيري، اقتربْتُ من سريرها، فتحْتُ الملفَّ المُلقَى أمامه بيدٍ ترتجِف، أوراق كثيرة، بتواريخ قديمة تعود لأربع سنوات خلت وتواريخ جديدة بعمر الشهر و الأسبوع والبارحة واليوم، تحاليل وإشاعات، خطابات تحويل من طبيب لطبيب، خطابات توصية...:

"المريضة"....."أنثى، عشرون سنة، تعاني منذ أربع سنوات من سرطان الرحم، وآخر الفحوصات تشير إلى أن الورم قد بلغ مرحلته الرابعة، الفئة الثانية (بي)"

الورم استشرى إلى كل عضو تقريبا، في العظام ،في المخ... في الرئة... أغلقْتُ الملفَّ، قدماي كانتا تذوبان أسفل مني، ارتميْتُ على طرف سريرها، رأيت اللَّافِتة مُعلَّقَة على ظهر السَّرير:"في حالة توقُّف الوظائف الحيوية لا حاجة لفعل الإنعاش القلبي الرئوي".

لو أرادت الرحيل ، فقط اتركوها ترحل في سلام ..

كأنّي في حلم، في كابوس مُفزِع، لابد أن أحدهم سيوقظني قريبًا، لقد كانت فقط تُعانِي من السُّعَال المُدمَّم، وبعض الشحوب والهزال، هذا كل شيء !!

نظرْتُ إليها ، كانت كالشَّمس المُجهَدَة، شعرها الذهبيّ يُحيط برأسها كأغصان الزيتون. كانت نائمة، جميلة ونقية، كمَلَك قد خُلِق للتوّ...

لو كنْتُ أُحِبُّها سَنَة فلقد أحببْتُها في تلك اللَّحظة عُمْرًا ، حينها أدرك فيّ شيءٌ أني لن أُشفَى منها أبدًا...

جلسْتُ بجوارها، أمسكْتُ بيدها، طلب منِّي الجميع أن أُغادِر، لم ألتفِت لأحد، لم يشفع لي أني طالب بكلية الطب... حاول أفراد الأمن إخراجي، تعاركْتُ معهم، فلمَّا يأسوا مني ألبسوني أردية الأطِبَّاء وأردية مُعقَّمَة وسمحوا لي بالبقاء. لم أترك يدها، تأمَّلْتُها لساعات، غفوْتُ واستيقظْتُ وغفوْتُ واستيقظْتُ، خرجْتُ لما حضر أبواها، دخلْتُ لما خرجا، خرجْتُ لما حضر زملاؤنا، دخلْتُ لما خرجوا...

وأمسكت يدها، ولأول مرة منذ زمن بعيد، أمسكت مُصحَفًا. قرأتُ من سورة "يس"،مرارًا وتكرارًا، لم أترك يدها، الألسنة خارج العناية وحول سريرها تلهج بالدعاء...

بعد أيام أفاقت ..

نهضت فجأة ،فزِعَة ، كأنها كانت نائمة ورأت كابوسًا ، نظرَتْ إليّ في لهفة ، قالتْ أوَّل ما قالتْ :" يحيى ، إني راحلة "

قلت من خلف دموعي "لا!"

قالت "يحيى ، إني لراحلة !"

قلت لا ،صرخْتُ : آه يا ربِّي آه ، حبيبتي و فرحتي يا رب !

قالتْ بصوت مبحوح :" آسفة يا حبيبي ، آسفة لكل شيء ، لم أخبرك لأني كان لديّ أمل ، أمل صغير ، أن يُسعِفنا الزَّمن والمرض ويتجاوز عنَّا الله الرحيم ، لكن الله اختار أن نفترِق .."

ثم نظرْتُ إليها وقلْتُ وأنا أتمزَّق :" كان علينا أن نغتنم كل تلك الحياة قبل أن يبتلعنا قبران ويُغطِّينا كفن وتراب.."

قالتْ: "إنه قبر واحد ،سيبتلعني أنا في ذروة حكايتنا وذؤابة جنوننا .. أمَّا أنت ! آاه يا عزيزي أمَّا أنت ،فستبكينني وتفتقدني وسيذبحك الصراخ في الفراغ الكبير ، لكنك ستنجو وتعيش وتسكن قلبًا جديدًا ..وستبني حُبًّا على أنقاضي ،ستأتي امرأة أخرى لا تشبهني ، لا تتأوَّه في صمت الليل ولا تصمت في صخب النهار ، فتاة صحيحة تضحك وتتكلم وتعيش حُبَّها الكبير ببراعة ، ستملؤك يا عزيزي بكل تلك الفرحة التي أعياني جسدي من أن أحملها إليك !.."

صرخْتُ من خلف رجولتي : "لكني لا أُريد من لا تشبهك .. أريدك أنتِ ولا أحد غيركِ أنتِ !"

قالت .. ومَلَك الموت صار ثالثنا ليكتب نهايتنا :

" حبيبي .. كُنْتَ صغيرًا تريد أُمًّا ،ثم صِرْتَ شابًّا تريد حبيبة ، ويومًا ما ستصير كهلًا تريد طفلة ، ما نريد يتغير لأننا نتغير ، الذي يبقى هو ذكرى جميلة أو موجعة في لحظة خفية ننهشها من ذيل الزمن الهارب.. أنا أعلم ، آااه يا حبيبي أعلم ،أن طيفي سيسكن بالك بسعادة أيامنا الأولى ،حين كنا نبني في لذة الامل والجهل بنيان حبِّنا لنختبئ فيه من عالمي وعالمك،حين كنا لا نعي أن الأرض أسفلنا هشَّة و زَلِقَة كالجليد ، وأنها حتمًا وقريبًا ستنهار بنا إلى عمق الفقْد ..

كل هذا الوجع الذي نهش جسدي ينتهي اليوم بين ذراعيك وقلبك ، اليوم أنا أرتاح يا حبيبي فلا تطيل عذابك بعدي فأتعذَّب بك.. "

وَضَعَتْ يدها على قلبي ، ونَظَرَتْ إليّ ،كانت في موكب الرَّحيل ،لكن وجهها كان يافعًا وحيًّا ،، وَضَعْتُ يدي على خدِّها ،كان دافئًا كالشمس ، اشتعلَتْ بداخلي جذوة أمل ،هذا الجسد النَّابض لا يمكن أن يكون

آخِذًا في الموت والذَّوبان ، عيناها كانتا ملئَتَين بالألق والحياة كعيني طفلة ترى البحر لأوَّل مرَّة ..

ضَغَطَتْ على قلبي بآخر قواها وأنفاسها ،سمعتُها لآخر مرَّة تتحدَّث، كانت كلماتها واضحة ومُدَوِّيَة في رأسي كالانفجارات :

" سأكون دومًا معك،ذائبة في فنجان قهوتك ، تائهة بين أوراقك ،مختبئة في حقائبك ،نائمة بين ضلوعك .. مُسافرة في أوردتك وساكنة في عمقك ..

سأظل يا حبيبي ،ويا رجلي ويا طفلي .. سأظل نجومًا أبدِيَّة في سمائك .. لا تحترق ولا تنطفئ !

لا تبحث عني ، فأنا فيك ، لأني منك ..

أنت أنا .. وأنا أنت ! ".

ثم دارت عيناها في الفراغ،و انطفأ كل شيء ..

وغادر مَلَك الموت في هدوء ،احتضنْتُها بقوة ،لم اصرخ ولم أبك ،كان كل شيء قد رماني بقوة في عمق الصدمة ، لا أعلم فيما كنت أفكر حينها ،لكني رغم علمي منذ دقيقة أن موتها محتم ، لم أفكر أبدا أن جسدها سيغادرني إلى الابد ، ولم يخطر ببالي أن المشهد على وشك بكاء ونحيب و أوراق و مُغسّلة وكفن وقبر وعزاء ، إنها فقط نائمة من تعبها الطويل ، ستنهض بعد قليل أو كثير ، سينهضها الطبيب ليطمئن عليها أو ستنهضها الممرضة لتناولها طعامها أو دواءها، ربما أكون فكرت في أي شيء ، لكني ألقيت فكرة الموت والفراق الأبدي إلى أطراف المستحيل ، ..

ناديْتُ الممرضة بعنف ، وانتظرْتُ أن تأتيني بترياق البعث ، لكنها أتت على عجل فارغة اليدين ، نظَرَتْ في الأجهزة وأبعدتْني بقوَّة ،وتحسَّست أنفاسها ونبضها ، ثم نادت الطبيب ، وقفْتُ عند حافة السرير أنظر إلى الجميع ولا ينظر إليَّ أحد كأني روح خاوية لا تُرَى ، نظَرْتُ إلى عينيها التين لم تعد تحرس الأجفان سوادهما و بياضهما، في لحظة خُيِّل إليّ أنهما تنظران إليّ،لكن كيف ، وتلك الروح التي كانت تُحرِّكهما كانت واقفة في مكان ما بجانبي تُراقِب مثلي في صمت كل هذا العبث ..

الطبيب يتحسَّس نبض رقبتها و يتسمَّع رئتيها وقلبها بسمَّاعته ، لا أذكر كم مَرَّ من الزمن ،كُنْتُ واقفًا هناك مبهوتًا كتمثالٍ أصمَّ ،كُنْتُ في منطقة ما بين كل شيء ، بين التصديق والتكذيب وبين العلم والجهل و الحقيقة والوهم ،كُنْتُ أعلم أنها رحلَتْ ، ولكني لم أكن أصدِّق ذلك ، ربما حتى الآن ..

الطبيب يُعلِن في نبرة عاديَّة جافَّة : "تم إعلان الموت في تمام الساعة العاشرة والتسع دقائق مساء الأحد .."

الأحد ..الأحد يجمعنا و الأحد يُفرِّقنا ، والأحد قام المسيح من الأرض لكن هل تقوم هي؟ والأحد سيهبط المسيح من السماء..لكن هل تهبط هي؟

الأحد يعني أن أنتظرها وأظل أنتظرها ، أُحِب الأحد وأكرهه و أضحك فيه وأبكي وأُسبِّح بحمد الله فيه وأذكره ،وأجلس مع الشيطان فيه وسويًّا نتذاكرها..

آاااه يا إله الرحمة ، إني أفتقِدها ، وسأفتقِدها إلى الأبد "

٤٣

لم أملك كلمات أجيب بها يحيى على كل ذاك الألم والتمزُّق ، ولا أملك كلمات لأصف بها هنا بيني وبين نفسي ما تملَّكني حين قرأْتُ رسالته ، سأكتفي بكتابة رسالته الجديدة :

" تدرين ..

لم تكن تلك مصادفة أن يكون آخر ما يرسم "فان جوخ" هو نفسه قبل أن ينتحر ، ! ، حين نصل إلى تلك النقطة التي نرى فيها كل شيء وهمًا كبيرًا ، وتبهت الألوان البرَّاقة بعد ما مرَّت عليها أزمنة الجنون ، حينئِذٍ نكتفي بأنفسنا.. لا لأنها تكفي ، بل لأنها تصير الشيء الوحيد المألوف ، وحين تصير أنفسنا هي الأخرى غريبة فلا ندري من نكون حقًّا ، حينها نكون قد بلغنا الحافَّة التي لا مفرَّ عندها من القفز إلى الصمت الأبديّ والحقيقة المطلقة ، الموت ..

ولم تكن تلك مصادفة ، أن بعث "فان جوخ" برسالة انتحاره إلى أعزِّ أصدقائه "ماثيو" ،وأن تترك "فرجينيا وولف"، التي قادتها الكتابة إلى الجنون ، وكثرت الأصوات بداخلها حتى خَرَّبَت الوساوس عقلها ، فكتبت نهايتها على رسالة انتحار أخيرة وتركتها إلى زوجها قائلة له " شكرًا على سعادتنا " ..

ولم تكن تلك مصادفة ، حين قرَّر "هتلر" أن ينتحر برفقة زوجته التي اتَّخذها عشيقة لمدة عشرين عاما ثم زوجة لمدة أربعين ساعة فقط ، قبل أن يتَّفِق معها على الانتحار بالسيانيد والرصاص ، ليتخلَّصا سويًّا من عار الهزيمة والاستسلام ..

إننا نوجه رسائل النهاية لأقرب الناس إلينا ، لأولئك الذين كانوا معنا منذ البداية وعبر الألم ، نُوجِّهها لهم لنعتذِر عن شناعة ما اضطرَّتنا الأقدار اليه ، أن نختار الخيار السهل ..الموت بسرعة وهدوء .. لنهرب من الخيار الصعب ، الحياة ، بكل قسوتها التي نموت فيها كل يوم بصخب دون أن يسمعنا أو يشعر بنا أحد ، حتَّى هؤلاء الأحِبَّة الأقرباء ، وبالأخص هم ، لأننا نتفنَّن في صَمِّ آذانهم عن آهاتنا وسَتْر أعينهم عن جروحنا لكي لا يتأذوا ، لكن السدَّ مهما بلغ من علوٍّ فإن تلاطُم الأمواج ينحته ببطء ، ويومًا ما لابُدَّ وأن ينهار..

العالم بشع ، ورغم كثرة الآلهة التي يعبدها البشر فليس هناك منهم من ينقذه ، لذلك أحببْتُ ، أحببْتُها هي بحثًا عن سعادة هاربة في زمن مسروق بحذر، قبل أن يأكل هذا العالم المجنون نفسه ، لكن كل شيء كما ترين قد تهاوى قبل الأوان بأوان ، حتى الحب الكبير يُمكن أن يسعه قبر ويُغطِّيه الرُّكَام..

٤٤

أشعر شعورًا سيِّئًا للغاية ، كأن قلبي يتمزق ألف قطعة ، براثن الاكتئاب لا ترحم ونوباته تجعلني خائرة القُوَى مُحطَّمَة النَّفْس كفتاة مُغتَصَبَة ،

أشعر كأني لا أعرفني ، فتاة تسكن فتاة وكلتاهما لا تعرف عن الأخرى شيئًا ، غريبة عن نفسي وما حولي غريب عني ،كل شيء ينكرني ، ويتهيَّأ لي أن كل الناس تكرهني ، ويتغامزون عنِّي بالسُّوء حين أمُرَّ بهم ، لذلك صِرْتُ أكره الأماكن المُزدَحِمة ، وأعشق الجلوس بمُفردي لأتَّقي أذاهم .. ربما أنا ضعيفة وجبانة ، لكني تعبْتُ من المقاومة وأن أظهر بمظهر الفتاة القويَّة وأتسربل أمام الناس بالدُّروع التي تُثقِلُني وتستنزِف طاقتي ، أنا دموعي الصامتة والتفافي حول نفسي في ركني المنعزِل ، أنا قلبي المذبوح المنتفض وروحي السجينة المُعذَّبَة و أدويتي الكثيرة وفشلي الكبير ، أنا كتبي الكثيرة التي أتريَّض فيها بعيدًا عن أعين الناس ، أنا العبث الذي لم يخلقه الله و أنا الشَّقاء الذي صنعه الشيطان ، ليتني أملك الشجاعة لأُنهي كل هذا ، بسجدة واحدة ، بصرخة واحدة ، برصاصة واحدة، أي شيء ينهي عذابي بسرعة فأنا راضية به وأنتظره .. أفكِّر الآن ماذا لو اطَّلَع الناس على كتابتي تلك ، حتمًا سيظنُّون أني مجنونة أو في أفضل الأحوال كئيبة ، لكنِّي أدري أن كثيرًا منهم مثلي تمامًا بل وأكثر ، لكنهم لا يزالون يملكون طاقة التزييف والتَّمثيل ويَملِكون كل الجُبْن والنِّفاق المطلوبَين لذلك ، أو منهم من يملك بقايا الأسباب التي تُحِيل بينه وبين السُّقوط في غور الهاوية ، لكن جميعهم

في طريقه إلى النفاد والتلاشي ، ومنهم من لن يكتب ويُمهِّد ولكن سيأخذ طريق الخلاص المختصر ، وحينها سيُفاجَأ الناس الأغبياء مِن ذاك اليأس المُفاجِئ والاستسلام الغير مُبرَّر ، لكن مثلي من أُولي الشعور سيعلمون ، أنه لطالما حارب في معاركه الخاصَّة السِّرِّيَّة ، لطالما دافع عمَّا تبقَّى من قلبه الأخضر الشاب فتارة ينتصر وتارة ينهزم ،، وهو يعلم أن النهاية آتية ولن تكون في صالحه ، لأن أسلحة المبررات تتلم ، وأقنعة السعادة تتلف، والقلب الأخضر يبيضُّ ويتجرَّد ، ومَن لَهُ؟ وهو معزول عن سماوات الرحمة وأراضي الهروب ، وهو وحيد وسط لُجَج البحر الذي يبتلعه فلا حبل ينتشله ولا نور يرشده ، ربما كان يَحيَى من هؤلاء ، يُصارِع بضراوة ويحمي عُروش الأمل طويلًا قبل أن يقع في حب تلك الفتاة ، فلما أحبَّها انتصر بها على يأسه وشتاته ، ثم تضعضع وانهار كبناية قديمة لما رحلَتْ ،إنَّه الآن بقايا روح وفتات قلب، وأنا لا أملك له من أمري شيئًا ، ليتني أملك أن أنفخ فيه من روحي المُتعَبَة ، أو أُرتّق رُقَع قلبه بنسائل قلبي المُتهَتِّك ، لكن الضَّعف لا يسند الضَّعف ، والدموع لا تمسح الدموع ،والميِّت لا يبعث ميِّتًا مثله..

أكثر ما يُؤلمني أني أسمع زميلاتي يتحدَّثْن عنه بالسوء ، أنه فتى عربيد ماجن مُخيف الهيئة قذر اللِّسان ، ويتعجَّبْن أن الجامعة تتجاوز عن غرابة أطواره و تردّي أخلاقه دون أن تُحيلَه للتحقيق ولو لمرَّة واحدة ، وكيف أنها تتجاوز عن رسوبه أربع سنوات متتالية وتتركه مُنتظِمًا كما هو في السنة الرابعة، ربما كان الفضل لأبيه والزيّ الميري..

كان هذا يُدهِشني أيضًا لكنه كان يُؤلِمني لأني دونًا عنهن أعلم من هو يَحيَى ، أو على الأقل من كان يَحيَى ذات يوم .. وكنْتُ أتمنَّى لو كُنَّ

يتساءَلْن عن السَّبب الذي جعله على ما هو عليه الآن ، حتَّى ولو كُنَّ لا يحِطْن خُبرًا بعهده السَّابِق من التفوُّق والنَّباهة فإن كل إنسان مُجرِم كان في الأصل صالحًا ثم أفسده رفيق او طريق ،هكذا يهوَى الصَّالِحون الحكم بالسوء على البشر كأنهم جعلوا أنفسهم صالحين بأنفسهم ، لا بتهذيب الله و بحسن المقادير ، هذا إن كانوا صالحين في الأساس!

لو لم يكن يحيى وقع في حُبِّها حتى غرق فيه إلى ذؤابة رأسه ، لو لم يهواها بكل هذا الصدق و الإخلاص لما تعذَّب بفقدها كل هذا العذاب ، ولما ألقى بنفسه في مهالك الروح والجسد ، فلا هو يخاف على شيء ولا هو باقٍ على شيء ، فقط يُحطِّم كل مراياه ويُعكِّر كل المياه كي لا يرى صُورَتَه فيهم وحيدًا !

لو كُنَّ يعرِفْن عنه ما أعرف ، لو كُنَّ تنفَّسْنَه كما تنفَّسْتُه ،لربما فَهِمْنَه ، لربما عذَرْنَه، لربما وقعْنَ في غرام ذاك الفتى الذي كانَهُ قبل مذبحة قلبه العشقيَّة وتمنَّين لو كُنَّ مكان حبيبته الرَّاحِلة ، لكني أعلم أن أحدًا لن يعرفه مثلي ، وأحدًا لن يفهمه مثلي ، وأحدًا لن يتمنى غرام يحيى الأوَّل مثلي ، وأحدًا لا يمكن له أن يقع في غرام يحيى الحاليّ غير فتاة مهبولة ،مثلي!

٤٥

" ربما كان لقاؤنا في ضياعنا ، في افتراقاتنا غير المحسوبة ، في ذاك الجحيم الذي لا ينطفئ ولكن يلعكنا فيزيده عرقنا اشتعالًا .."

أُحِبُّ قول كريستوفر مكاري حين قال :"إن أكبر خدعة نفَّذَها الشيطان أنه أقنع العالم أنه لم يُوجَد قطّ!"

قُوَّته تكمُن هنا ،في وجوده الحقيقي وغيابه المُفترَض دائمًا ، لأن الذي يُصدِّق أن هناك شيطان فحتمًا سيُصدِّق أن هناك إله، ومن يُصدِّق أن هناك إله فسيُصدِّق حتمًا أنه هناك ثواب وعقاب ، وفي ذلك كله يستيقظ الضمير الذي يُوخِز و يُقرِّح ويُدمِّر اللَّذَّة عقب كل معصية لذيذة ..

كثير ممن نُحبِّهم ينقلبون أيضًا برغبتهم أو رُغمًا عنهم شياطين حاضرة غائبة ،يوهموننا بالغياب وهم يعلمون أنَّهم حاضرون بكل طريقة ممكنة ، بالذاكرة المشتعلة والجروح التي لا تندمل ، بالقصص التي لم يُؤذَن لها أن تكتمل ، بالصَّبر الذي يأس الأمل منه فأفلت يده ..

يوسوسون لنا وسوسة خفِيَّة :"إننا أقداركم التي حرَّرتكم فأسَرَتكم ، وتمائمكم التي باركتكم فلعنتكم!" ، الحاضرون الغائبون ، هم الأضداد كلها والشقاء كله ، يُجهِدوننا بأطيافهم التي تُمزِّقنا مهما اختبأنا منها تحت أكوام النسيان ، ليتهم يرحلون بالكُلِّيَّة أو يبقون بالكلية ، وليتهم يعلمون أن نصف الرحيل هذا يقتلنا ببطءٍ قاسٍ.. آاه لقول العقاد "ومن مات له عويز فهو يمشي في الحياة بغمرة الموت ،يمشي بجيش من الجرحى والهالكين!"

جيش لا ينتهي منهم ، مُحمَّل بالخيبات والأعلام المُنكَّسَة ويتمنَّى لو كانت الحرب موت فقط أو نصر فقط ، ولم يكن من نصيبهم نصف الحياة التي تشبه الموت وليست بالموت.

ها هو البرد يحتلُّ جسدي والوحدة تحتلُّ روحي ، وموسيقى الانتحار الاخير تُدخِّن جوَّ الغرفة..

الأيام تمرُّ وأنا لا أتغيَّر كثيرا ،عدا جسدي الذي يصير أنحف وشعري الذي يتساقط ، والصُّداع الذي يشجّ رأسي يزيد قُوَّة وقسوة ، يظلُّ كل شيء ساكنًا كالأحجار القابعة في قعر النهر..

وعدا ذاك النور الذي يضيء كلما وجدْتُ رسالة من يَحيَى في مكاننا ثم يخفت كلما طويْتُها بعد ما قرأْتُها ،لأني أجد نفسي المهزومة عائمة في خبث بين الكلمات والسكتات والوصلات ،حتى لا أدري أهو يحكي عنه أم عني ، أم عن كلينا معًا لكن في أزمنة مختلفة ،

" روحك مثل سلسال الماء ، وقلبك دُرِّي يشعُّ بالبياض والنور " هكذا وصفني في رسالته:

"ليس من الضروري أن نُؤمِن بوجود شيء كي نملك عاطفة نحوه..هذا العالم مليء بمن لا يؤمنون بالله لكنهم في نفس الوقت يخافونه!

وأنا لا أؤمن بوجودها لكني أحِبُّها وأعشقها وأتلظَّى من الشَّوق والظمأ إليها، أنقلِب كل يوم إلى برومثرس و أخلقها كل يوم في دفاتري بأقلامي ، كلمات تصفها ورسومات تُصوِّرها ودموعًا تُلهِب رمادها وتُشعِل النَّار في حطام الذاكرة، كل يوم أغرق في فناجين القهوة وأحرق رئتي بالتبغ وأُلوِّث أوراقي وجروحي وأُلهي نفسي في عملي الذي لا ينتهي ، وبالنهاية أَسقُط صريع الخيبة وأُداعِب طيفها في أحلامي ،وأستيقظ على وسادتي

المُبلَّلَة بدموعي الرجولية..

ماذا علينا أن نفعل بالضبط حين يموت نصفنا الثاني ؟ هل نأخذ برأي من لا ينفَكُّون يخبروننا أن الحياة لابُدَّ وأن تستمِرَّ وأن الحيَّ خير و أبقى ، والحياة لن تستمِرَّ إلا بقلب جديد وحب جديد ، أم نفعل ما تهواه أنفسنا وتُحبِّه أن نسير في ما تبقى لنا من حياة على أمل اللقاء الآخر في الحياة الأخرى ، وفي ذلك نُغلِّف قلوبنا ونَقِيها من حب جديد يمحو الذكرى السَّابقة ، كيف سيكون أحِبَّتنا يا ترى إذا ما حجبهم الموت عنا وأخَّرْنا عنهم ، ثم التقيناهم بعد موتنا في جنَّات الخلد فوجدونا قد استبدلنا بهم أُناسًا آخرين ؟ أو لن يملؤهم الحزن؟؟ لكن ليس هناك في الجنة من حزن ولا شقاء ، إذن هم لابد وأنهم ينسوننا إذا ما رحلوا عنا ،لكن الله يقول: "جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريَّاتهم" ، إذن فليس هناك نسيان ، لكن ربما الله يريد من كان بينهم صلة قرابة حقيقية ، لا طيف من المشاعر وإن كانت أقوي من صلة الدَّم والنَّسَب ، لكن لا أتخيَّل أن أمُرَّ بجوارها في الجنَّة ولا أعرِفها ولا تعرفني ، لا يمكن ! لا أتخيَّل! أو ربما كان ممكنًا، لأن في الجنَّة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا "خطر على قلب بشر" ..

الهنود يُوقِنون في عقيدتهم البرهمية أن الروح لا تتلاشى ولا تفنى ، لكن كلما مات لها جسد بُعِثت في جسد آخر ، جسد إنسان أو حيوان أو طير أو حتى شجرة ، والجسد الذي تُبعَث فيه هو جزاؤها على ما صنعَتْ في الحياة السابقة ، فلو عملَتْ صالِحًا فهي في جسد إنسان قويم ، وإن عملَتْ فاسِدًا فهي في جسد حيوان ذميم ، وكلما بُعِث

الإنسان في جسد جديد مُحَت ذاكرته محوًا حتى لا يبقى سوى ذكريات عابرة يتذكَّرها بين الفينة والفينة كومضات الحلم..

لا أدري إن كان هذا صحيحًا أم لا ، لكن في هامش كل ذلك فإني أُحِبّ ذاك القول جدًّا جدًّا ، لأنه يعطيني الأمل السريع والهيّن أنها بُعِثت من جديد في جسد إنساني يُشبِه روحها العذبة ،وأنه ليس عليّ الانتظار طويلًا كي ألقاها في الآخرة ، كما أنّي أدري أن مثلي لن يدخل الجنة ، وأن مثلها لابد وأن يدخل الجنة ، وحينها تكون الفُرْقَة أبدِيَّة ويبتلع المستحيل حُبَّنا غير المكتمل. ربما تكون بعثت في جسد طفلة أو جسد حتى امرأة؛ لأن الأرواح لا يحدُّها زمن ولا عمر، ربما تكون بُعِثت في جسدك أنتِ، أنتِ تُشبِهينها كثيرًا، ربما لذلك كاتبتُك أول مرة أو لعل يأسي قد هيأ لي ذلك ، لكن ما أعلمه يقينًا أن روحك نقيَّة كسلسال الماء ، وقلبك دريّ يتوهَّج بالبياض والنور".

٤٦

ميدان التحرير

في قلب القاهرة ، التي بلا قلب ،

لا أدري لم وجدْتُ نفسي فجأة هنا ،أخلق أسبابًا جديدة لاكتئابي ، ربما ، الجو بارد ، والأزواج من بني الجنسين مجتمعة وقريبة حدَّ الالتصاق طلبًا للدِّفْء واللَّذَّة ، وأنا هنا وحدي ،اليوم مرَّ سريعًا ، كل شي اليوم تكسَّر بلا صوت ، ثم سقط في هُوَّة بلا قاع ، لا أسمع صوتًا ، الصَّمت ، لا أريد أن أسمع سوى الصَّمت ، صياح السيارات ، وضحكات العُشَّاق والأطفال ، لا أريد أن أسمع شيئًا ولا أحدًا .. أوَدُّ لو أدُور ، وأدُور في مكاني بلا توقُّف ، كمولانا جلال الدِّين ، لعَلِّي أَصِل إلى الله والطمأنينة ، وأنسى كل شيء ، لا شيء يستحق أن تحمله كواهل الذاكرة ، فخاتمة كل شيء الفناء المُوجِع، أدور ، وأدور وأسحق تحت قدَمَيَّ تلك الدنيا ، لعلَّني أتحرَّر ، لعلَّني أرتاح ..

يَحيَى ، يموت ..

يَحيَى يقتله جماعة موتورة من أبيه ، إذ يدَّعُون أن فتى منهم قُتِل بمُسدَّس أبيه في أحداث بين السرايات ،يوليو ٢٠١٣ ، أرادوا أن يحرقوا دم أبيه على ولده ، كما أحرق قلوبهم على ولدهم ، رغم أن الشرطة لم تكن طرفًا في حرب الشوارع تلك ، بل كانت طرفًا للتَّهدِئة ،

لكن يَحيَى ،يُقتَل ،يَحيَى يموت ، ويَحلُّ السكون ، ويخلو ركننا من الرسائل ، بم أشعر؟؟ فقط بقليل من المرارة ، و قليل من الفقد ،ربما تطبَّعْتُ بالحزن حتى مات القلب ، أو لا .. ربما ذاك لا زال طفلًا وسيكبر

سريعًا مع الأيام ،أعرِف نفسي، أشعر بكل شيء بعد الأوان بأوان ، الحب ، والفرح ، والحزن، لا أعرف كيف كان يغمرني شعور إلا بعد أن يمر ما أشعله، يحيى ، يموت ،

المذيعة المُنمَّقة ذات الشَّعر المكويّ و الشفاه المُلتَهِبة بأحمر الشفاه ، تتلو الخبر بين الأخبار في لا مبالاة :"مقتل نجل عقيد أمن مركزي على يد مجهولين" ، لم تقلِ اسمه ، ولم تقلِ استُشهِد:

"وقد روى شهود عيان أن جماعة مُسلَّحة أطلقوا النَّار على الشاب ابن الست والعشرين سنة في تمام الساعة الحادية عشرة مساء الأمس ، الأحد ، أمام منزله الكائن بحيّ الدُّقِّي بمحافظة الجيزة ، وقد تُوفِّي لتوّه مُتأثِّرًا بجراحه".. صمتت لثلاث ثوان ، تابعت: "من جانبه ، صرَّح مسئول بجماعة الأخوان المسلمين المحظورة أن الجماعة مُؤمِنَة بعدالة قضيتها.."

وتتابعت الأخبار ، ولكن يَحيَى مات ، بالنهاية هو أمر عادي وسط كل هذا القتل ،لابد لجميع أطراف النزاع السياسي أن تنزف لأن الوطن عاطش ، الوطن الإليزابيثي الذي لا يرويه سوى الدَّم الشاب ..

بالصباح التالي ،ذهبْتُ إلى الكُلِّيَّة ،وقفْتُ أمام رُكننا المُفضَّل ، غريب أني أُسمِّيه ركننا رغم أنه لم يجمعنا سويًّا قطّ ، لكن كل منّا على حدة ، يكتب للآخر ، أو يدُسُّ رسالة للآخر ، أو يفكِّر بالآخر ، أو يُراجِع مآسيه وخسائره كالأرامل ، نظرْتُ في صمت ، لم أبكِ ، لكن إحساس المرارة بدأ يزيد، ربما كانت تلك بداية الفوران ..

فكَّرْتُ : إذن.. يَحيَى مات..

استدرْتُ في ثقل ، وسرْتُ بلا روح ، ووقفْتُ أمام المبنى المجاور لركننا ، ولجْتُ بابه الحديدي الكبير ، هبطْتُ السُّلَّم ذا الدَّرجات الخمس، وولجْتُ البهو ، ثم سِرْتُ في الممر الضيِّق ، غرفة ، الثانية، الثالثة ، الثالثة مكتوب على بابها "مُنَوَّع الدُّخول"

ممنوع الدُّخول ، ..كانت كذلك حتى عبث بها أحدهم كي يسمح لنفسه دخول غرفة البيانو ، ربما كانت هي من فعل..

هممْتُ أن أفتح الباب ، حين سمعْتُ لحن بيتهوفن يتسرَّب عبر الشِّقِّ أسفل الباب وحوله ، مقطوعة

"Für Elise"

وضعْتُ يدي على المقبض في تردُّد ، أدرْتُه في حذر ، لم أكن خائفة ، لكن حرصْتُ ألا أُفسِد ذاك اللَّحن بصوت الباب القديم الصَّدِئ..

نظرْتُ إلى البيانو القابع أسفل النافذة ، ورأيتُها جالسة قبالته في ثبات، شعرها ذهبي لامع ، يعكس ضوء الشَّمس في بهاء ، وبجوارها كان يَحيَى مُتَّكِئًا على جسد البيانو الضخم ، ينظر إليها في حب..

دخلْتُ الغرفة ، عيناه تلمعان ببريق لم أره في عينيه قبلًا ، كان يبدو سعيدًا ، لم أره سعيدًا من قبل ..

تأملْتُهما للحظات عن قرب وهما يحيكان الحب الكامل ،قبل أن يتبخَّر كل شيء ، ويطبق الصمت ..

جلسْتُ إلى الأرضيَّة ، واتَّكأْتُ إلى الحائط ونظرْتُ إلى النَّافذة ، وبكيْت

٤٧

صعود وهبوط ، تحسُّن وقتي ثم انهيار مُفاجِئ إلى القاع ..
شهران الآن منذ مقتل يحيى ، شهران من الدوران في دوَّامات الشعور فلا أستطيع أن أصِف نفسي بشعور واحد ، لا أنا حزينة ولا أنا سعيدة ولا أنا مُهتَدِية ..ولا أنا ضائعة ، من يضيع هو من كان يتمتَّع بالهداية قبلًا ويعرف لوجوده مكانًا وزمنًا، وإني لا أذكر لي مرفأ أبحرْتُ منه ولا نقطة سكون ارتحلْتُ منها، .
يحيى يصير كل يوم حِلمًا عابرًا أكثر مما هو حقيقة ، كأنه كان وهمًا ، لم أعد أثِق بشيء سوى أني غريبة كأني نزلت لتوّي من الجنَّة كحواء ،هكذا إنسانة كاملة بلا ماضٍ ولا رَجُلٍ ..
ابتعدْتُ عن صديقاتي ولم أعُدْ أذهب إلى الكُلِّيَّة إلَّا لِمَامًا ، ولم أجب على هاتفي منذ ما يقارب الأسبوعين ، تقوقعت مرة أخرى وقوقعتي هذه المرَّة أكثر سُمْكًا ، مرة أخرى أدفع كل شيء وكل أحد بعيدًا عني وأحتضن الوِحدَة ، بحثًا عن أمان البقاء وهربًا من غدر الرَّحيل الذي يأخذ كلَّ من يقترب منِّي..
الإحباط ، والوحدة ، غزا حياتي بكلِّ قُوَّة منذ زمن لا أذكره ، مُحمَّلين بالصَّقيع والظَّلام الذين لا تقشعهما شمس ، لكنَّهما وَفِيَّان إلى أقصى درجة ، لم أعد أصدِّق أو أتخيَّل حياتي دونهما ولا أريد حتى حياتي بدونهما ، من أين يبتاع الإنسان لنفسه اثنين يضمن بقاءهما مثلهما ، حتى بعد الموت ؟!

وحيدة في قبري ، سأُجِيب سؤال الملكَين ، سؤالًا تلو سؤال ،ثم سيرحلان هما أيضًا ، ويتحوَّل قبري إلى روضة نعيم أو حفرة جحيم ، لكنِّي في الحالتين سأظلُّ وحيدة ..

هناك شيء جديد أيضًا بدأ يتودَّد إليّ ليكسب صداقتي ، الكوابيس .. أحلم كلَّ يوم بثعابين تهاجمني وكلاب تطاردني ، لطالما حلمْتُ بمثل هذه الأحلام وأنا صغيرة وحين كنْتُ في ذؤابة كفاحي مع الاكتئاب ، لكن حينها كانت الثعابين والكلاب تكتفي بالمطاردة وكنْتُ أستيقظ سامعة صراخي ومُتصبِّبَة بالعرق ومُرتعِدَة من الخوف كأنَّ كل شيء كان حقيقيًّا ، لكنها هذه الأيام تبلغني فعلًا وتلدغني بل وتأكل لحمي حيَّة ، وأستيقظ مُحبَطَة ومُكتئِبَة أكثر مني خائفة ، وأشعر بالبرد الشديد رغم قيظ الصيف ، ورغبة شديدة في أن يحتضنني أحدهم ، لكنَّ الأمر ينتهي بي دومًا في الخلاء حيث أُدِير الصنبور بيَدٍ لا أملكها، وأجلس مُحتضِنَة رُكبَتَيَّ ومُغمِضَةً عيني، ورأسي يطقطق أسفل قطرات الماء البارد المنهمر، والتي تحوي كل منها ذكرى ملتهبة كالحمم..

وأفتح عيني ، وأنظر إلى الصنبور و المنشفة والحوض والدلو والبلاط والسَّقْف و المصباح ، وأحسدهم ، وأتمنَّى لو كنْتُ جمادًا مثل أيٍّ منهم ، وأسمع صوت زميلاتي في الغرفة يتكلمْن ويضحكْن ، أو يتشاجرْن ، وأتمنَّى لو كنْتُ أنا إحداهن ، رغم إني أدري أن كُلًّا منهن تملك جانِبًا مُظلِمًا كجانبي ، حزنًا وفقدًا وألمًا ، لكنهن لا يشبهنني ، أعلم ذلك لأنهن قلن لي ذلك ،أذكر كلمات ليلى وهي تعاتبني في رفق وتقول: "كلٌّ منَّا يا شمس، كلٌّ منَّا قد جمعت أحزانها في كهف بعيد ، تزوره بين الفينة والفينة أو بالأحرى تُجبَر على زيارته ،لتعاود حزنًا قديمًا قد اشتاقت

إليه ، أو لتُلقِي في غياهبه حزنًا جديدًا ، ثم تعود من الكهف دون أن تحمل منه شيئًا ، وتعود إلى الحياة بوجه باسم ، وتُعانِقها بعد أن أشتاق كلٌّ منهما للآخر..

إن النبي محمدًا-صلّى الله عليه وسلّم- كان يُعاوِد غار حِرَاء للتأمُّل والتعبُّد، وإنِّي أُخمِّن أنَّه أيضًا كان يُعاوِد غاره لينفض عن نفسه شيئًا قد أحزنه ، ثم لما أكرمه الله برسالته استبدل بعزلة الغار عزلة الصلاة الهادئة في جوف الليل ، ليتأمَّل ويعبد ، وينفض عن نفسه كل ما أحزنه في يومه وليلته ..

أما أنتِ يا شمس فحياتك كلها هي كهفك المليء بالظلمة والحزن والوحدة ، وكهفك هو حياتك التي تعاودينها بين الفينة والفينة ،

لقد أخبرتُكِ بهذا كثيرًا ، ربما ألف مرَّة ، لكن دومًا يمكنك أن تُحدِّثِيني ، أعلم أنك كتوم وقليلة الكلام ،وأنك ترين الكلام عن أحزاننا ثرثرة لا طائل منها ولا فائدة، لكن صدِّقيني كثيرًا ما يُجلِي الحديث الحزن الجاثم ولو مُؤقَّتًا"

سألتُها في غير اكتراث :" لو كان جلاؤه مُؤقَّتًا ، إذن ما الفائدة ؟ "

أجابت بحماس: "ولو ، فإنَّ هذا الوقت هو كل ما تحتاجينه ، تذكَّري دومًا أنَّ الحياة كلَّها مُؤقَّتَة ، نحن زُوَّار على تلك الأرض وفي ذاك الزمن ، استأجرنا الله فيها لنُعمِّرها بعقد طوله يعلمه فقط هو، وسينتهي يومًا بالموت ، لذا كلُّ ما يضمُّه زماننا من حزن أو فرح مُؤَقَت ، كلُّ شيء حتمًا سيمرُّ، أليس كذلك؟"

قلتُ بشي من الاقتناع : "بلى ".

تابعت في ضحك:"أتدرين ، سأسمّيكِ من الآن فصاعدًا (امرأة الكهف) .."

(امرأة الكهف) ربما كان هذا الاسم يليق بي، لو أني كنت مُخبِّئة نفسي مع أحزاني في كهف غائر في جبل كغار محمد، لكني دومًا أرى حياتي بئرًا غائرًا في الأرض ، كبئر يوسف ، حيث بكى وانتحب ليالٍ فلم يسمعه أحد سوى الله ، فأنقذه بالقدر والصدفة لمَّا أرادت القافلة السقيا ، ليتك تسمعني يا الله ، ليتك تسمعني ..

٤٨

"الآن أنا لا أعاني من الآخر بقدر ما أعاني من نفسي ..
فمي الآن هو المُرّ ، وجهي هو الصعب ، وليست معادلات الدنيا ..أعرف أن ما سأفعله الأيام القادمة هو الذي سيُحدِّد أيهما سيسبق إلى افتراسي ..الكآبة أم الجنون!" " محمد حسن علوان "
البارحة ، فعلت شيئا جنونيا ..
زميلاتي تعجَّبْن من تلك الأساتك اللَّامعة التي كنْتُ أرتديها حول حجابي اليوم ، تلك التي ترتديها الفتيات في الأفراح والمناسبات البهيجة ، تعجَّبْن أنَّني أرتديها في الجامعة ، وتعجَّبْن أنها لا تتماشى وشخصيتي الكئيبة ، لكن دهشتهن لا تُقارَن بدهشة ليلى ، حين خلعت حجابي أمامها في السكن .. شهقَتْ ، وصرخَتْ " أيتها المجنونة ! ماذا فعلْتِ؟!"
نعم لقد حلقْتُ شعر رأسي كلَّه عن بَكْرَة أبيه! ولم أجد غير أساتك "مِنَّة" البرَّاقة لأشُدَّ بها على حجابي وأمنعه من الانزلاق فوق رأسي الحليق ..
"لماذا فعلْتِ ذلك ؟؟" صَرَخَتْ ..
سَكَتُّ بُرهة ، ثم قلت في صوت متردِّد " لا أدري!"
كانت واضعة كفَّها على فمها ، ثم تحوَّلَت نظرة الدهشة والرعب في وجهها إلى نظرة شفقة ، ثم اقتربَتْ مِنّي وضمَّتْنِي بقوَّة ، و .. بكيْتُ ، بكيْتُ كأنَّي لم أبكِ قبلًا ، تنشَّجْتُ ، ثم ساح وجهي كلُّه على كتفها ، صرخْتُ وسط بكائي : لا أدري شيئا .. لا أدري.. لم أعد أفهم شيئًا ، لم أعد أريد شيئًا ، أريد أن أرتاح فقط يا ليلى ، أريد أن أرتاح "
نعم ، لقد استسلمتُ للانهيار كثيرًا في الآونة الأخيرة حتى صار لي عادة ،

لم تعد تُجدِي كل تلك المحاولات التي كنتُ أنتهجها لألْتَفَّ حول اكتئابي وأمنع نفسي من أن أنهار في الخلاء أو في ركني الخفي ، صرت فريسة سهلة للظلام والوِحدة وهما لا يألوان جهدًا في اغتصابي واستنزافي ، حقًّا ، لم أعد أرغب في الاستمرار..

هل لو أنهيت كل هذه المأساة بِجرَّة موسِي على رسغي أو سقوط حر من أعلى الجسر ، هل سيفتقدني أحد ؟ هل سيبكي عليَّ أحد؟ نعم ، ربما ..لكني كنت أسعى بعزيمة لا تهدأ طيلة سنوات أن أجعل الحزن بعدي قصيرًا وخفيفًا ، بابتعادي عن الجميع وقطع الحبال و إعلاء الجدران، وإن كنْتُ أسمح للبعض بالاقتراب فذاك لأني أعلم أن علاقتنا سويًّا مُؤقَّتَة ، و ستنتهي بانتهاء الفصل الدراسي أو السنة أو حتَّى الجامعة ، لكن العلاقات طويلة الأمد ، لا ..لابد أن تنتهي ، لابد أن يكرهني الجميع أو على الأقل لا يحبوني ، وحين يقولون ماتت شمس، ويسألهم الغريب من شمس؟ يقولون : شخص عرفناه ، فقط عرفناه قبلًا ..!

على أية حال أنا عِبْء على الجميع ، عِبْء على أمي بمصاريف أدويتي وجامعتي ، وعِبْء عليها وعلى زميلاتي هنا بنوبات صرعي التي تُفزِعُهنَّ باللَّيل والنَّهار ، و تُجبرُهنَّ على حملي للمشفى في جوف اللَّيل لِأُعطَى المهدِّئات و أُعالَج من جرْحٍ في لساني أو بقيَّة جسدي إذا ما جرحْتُ نفسي ، وقريبًا سأصير عبْئًا على أختي التي لن تقبل أمي بتزويجها قبل أن تُزَوِّجَني ، وهذا ما لن يحدث أبدًا ..

ربما سيخلق موتي شيئًا من الدراما ، لكن لن يلبث الجميع أن يشعروا بالرَّاحة من ذاك العبء الثقيل ،

"أجاثوسيا " ..التضحية الأخيرة !

٤٩

أشتاق يحيى

بدأت أفتقده ، الألم يعتصِر داخلي ،أعرف هذه البداية الشائكة التي تفضي لطريق طويل من الألم ..

يرحلون ، وتبقى أماكنهم لعنات ، وساحات حرب ضروس بين الآن والماضي ، بين الرغبة في الاستمرار بعدهم ، والرغبة في عدم تجاوزهم والبقاء في كنفهم وأكفانهم ..

تلك الحرب هي التي أعيش فيها منذ ما يقرب الثلاث سنوات ، وكلما انتهت فيها معركة وخرجت منها مُمَزَّقَة و مُدَمَّاة ، ابتلعتني معركة أخرى أحمى و أشدّ ،، لا أدري لم يراني الله مُقاتِلة فيزجّ بي في معارك القدر التي لا ترحم، ولو كان الأمر مُحتَمًّا فلم لا يخبرني كيف يُقاتِل الإنسان أشباح بشر؟ ..

كيف أقاتلهم وأنا مريضة بالصَّرَع والاكتئاب ،كيف أقاتلهم وأنا هكذا ضعيفة وجبانة ؟ نعم جبانة ..

تلك المُعذَّبَة لا زال في جوف قلبها ركن لا زال يريد وجودهم ، ويتلذَّذ بعذاب ذكراهم ، ركن لا ينسى لأنه لا يريد أن ينسى ..

لم أجد وصفًا لضعفي ذاك أصدق من وصف ريتشارد ، صديق إليزابيث جيلبيرت الذي قصَّت عنه في كتابها "أكل صلاة وحب" ، حين وصفها في تعلُّقها بصديقها القديم بأنها كالكلب الضالّ القابع في حفرة مليئة بالمهملات ، يعتصره الجوع للَّحم المُعلَّب فلا ينفكُّ يلعق علب القصدير الفارغة لأنها تحوي رائحة اللَّحم ، لكنها لا تُسمِن ولا تُغنِي من

جوع ! نعم أنا مثلها ، أرهن نفسي بشخوص وحياة لا سبيل لرجعتها، لكنِّي أعتقد أنِّي لستُ مثلها تمامًا ، لستُ أشتاق حبيبي القديم قدر ما أشتاق نفسي التي كنتُها معه وقبله ، ولا أشتاق يحيى قدر ما أشتاق مراسلاتنا سويا وحديثنا المكتوب الذي كان يزيح عني قدرًا من الوحدة والألم ، وأشتاق أمي وأختي الصغرى رغم أنهما لا زالتا هنا ، لأني أشتاق حالنا سويًّا يوم كنا صغارًا وكانت أمي شابَّة سعيدة آمنة تحت جناح أبي قبل أن يفنى ، قبل أن ينكسر في قلبها شيء بصمت ، شيء لم تفلح الأيام ولا الشهور ولا السنوات أن تجبره ..

"..وإن الناس لا يعنون حقًّا ما يقولون وما يشعرون .. إنهم يُحِبُّون لانهم ينبغي لهم أن يُحِبّوا ذاك الشخص بعينه وإنهم يتزوَّجون لأنهم ينبغي أن يتزوّجوا ذاك الشخص بزيفه .. وإنهم يفرحون لأنَّ هذا مكان وزمان الفرح .. ويحزنون لأنَّ هذا هو مأتم اللطم والبكاء .."

ربما كان يحيى مُحِقًّا في قوله ذاك ..

أشتاق للمكان ، للزمن ، لنفسي الراحلة ، ولكني ينبغي أن أنسى .. ليتني أنسى ! ..

٥٠

اليوم الثامن والعشرون من مارس .. يكون قد مر على وفاة أمي شهران تامان ، لم أشعر حينها بالحزن ، كالعادة ، بل سطا عليّ ذاك الشعور الذي لا يوصف ، اللاشعور ، التعادل والتبلُّد ، البرود الذي يُجمِّد الدم و يُغرِق الوقت والخوف والحب والدفء ، ويترك الحزن طافيًا على السطح كجثة نافقة ..

تلك المشاعر التي نعرفها جميعا ، الفرح والحزن والخوف والطمأنينة و و و ..هل هذه هي فقط كل المشاعر التي يملكها بنو الإنسان ؟ أم ربما هناك مشاعر أخرى يعيشونها أو على الأقل بعضٌ منهم ولكن لم يصفوها ، لأنهم يُكذِّبون وجودها ويُنكرونه؟

نعم .. أنا أشعر كثيرا بذاك الشعور الذي لا أجد له في قاموس الكلام مُرادفًا ، شعور مقيت ، لكنه ليس خوفًا ، ولا حزنًا ، ولا يأسًا ، شعور حي ، يزحف بداخلي ، يلتف حول قلبي كالثعبان ، يعصره ، يتكلَّم فيملأ صمتي بالضوضاء ، يلدغني فأكاد أنفجر من صراخي الصامت ، يقهقه بأعلى صوته فلا يسمعه سواي ، يشمت بي ،يتباهى بقُوَّته وسُلطانه.. يهزأ من ضعفي وعبوديَّتي ، شعور حي يملؤني بالموات..

لابد أن أطلق عليه اسمًا ما ، لقد اكتشفت شعورًا جديدًا ولي الحق في تسميته ، ولو كان قد اكتشفه أحد قبلي ، أو آلاف قبلي ، فلا زلتُ أنا الأجدر بتسميته لأني امتلكتُ الجرأة لوصفه وإخراج ظلمته الكبيرة للنور ،

حسنًا ماذا سأسميه ؟

الآن ليس لدي أدنى فكرة ، لكني سأجتهد أن أجد له اسمًا ..
و أمي ماتت ، دُفِنَت ، وتلاشت..
كيف ماتت؟ ميتة كلاسيكية بفعل المرض والعمر، أو قُتِلَت ، أو قتلتُها أنا ؟ ما الفارق؟ لقد دقَّت ساعتها وحملها العقربان إلى حيث ينتهي الوقت
هل أمي في الجنّة الآن ؟ لا يُفيد السؤال حيث ينقطع الجواب ..
أتمنى فحسب أن تكون في الجنة ،لقد عانت كثيرًا وطويلًا في صمت ، لم يكن يسعها أن تصرخ أو حتى تبكي إلا في الخلاء ، كنت أعرف أنها تبكي في الخلاء بمفردها ، حين كانت تنظر إليّ بعد أن أفيق من نوبة صرع ، و تُمسِّد على رأسي وتقرأ آيات القرآن ، ألْمَح عينيها تترقرقان بالدمع ، ثم تتركني وتسير في بطء إلى الخلاء ، تُوصِد خلفها الباب ، ليس هناك من رجل تُحيط نفسها بذراعيه وتُبلِّل صدره بالدَّمع ، تُوصِد خلفها الباب ، تجتهد أن تُداري انهيارها ،لكنها كانت في الحقيقة تتمنَّى لو يراها أحد ، ويضمُّها بكل قوة ، ويهمس لها أن كل شيء سيكون على خير ما يرام ، كانت تتمنَّى لو يراها أي أحد حتى لو كان أنا ، أضمّها وأُخبرها أنَّها لم تُقصِّر في حقي بشيء بل هي أعظم أم خلقها الله، وألَّا عليها أن تقلق فلابد أن يشفيني الله يوما، .
لكني لم أفعل ذلك قط ، بل كنْتُ أتحاشى النظر في عينيها ، كنْتُ أنا أيضًا أشعر بتأنيب الضمير ، وأني لا أستحق كل عطفها ذاك فأنا السبب في ما هي فيه من حزن وألم ، كنْتُ كلما رأيت حزنها كَرِهْتُ نفسي وتمنَّيْتُ هلاكي ،..و ..

ذاك الشعور البغيض قد نهض من سباته وخرج من جحره ، ويزحف الآن ببطء نحو سويداء قلبي ليلعقها ، ليتني أستطيع قتلك ، ليتني أملك الجرأة لأغرز مُدْيَة في قلبي فأموت وتموت معي ، على كلٍّ ما قيمة الحياة بلا أب و أم ، ما قيمة الحياة بلا روح ؟! لكني جبانة مثلك أيها الزاحف المقيت ، الذي لم أجد له اسما بعد !

٥١

"كيف نوضح للشمس أن أشعتها اليوم لم تعد إلا خيوطا لنسج أكفاننا ؟ بأية لغة نقول لها :شروقها جرح ، وليس غروبها إلا قبرا؟!"
" أدونيس "

"يا له من إحساس غريب! أن تتمنى كل يوم لو كنت شخصا آخر ..ترفض نفسك بكل تفاصيلك المزعجة غير متقنة الصنع ، جسدي المليء بالكدمات ، عقلي المكهرب ، روحي المليئة بالثقوب قلبي المحتل بالشعور الذي لم أجد له اسما بعد ..
هل يمكن للإنسان أن يعيش حياة طبيعية وهو لا يقبل تفاصيله ..
إرنست همنجواي ،الكاتب البائس ، وصاحب جائزة نوبل ، أصيب في آخر أيامه بالاكتئاب والخلل العقلي فلفظ نفسه العليلة وكرهها، وآثر الانتحار على الجنون فقتل نفسه ببندقيته المُفضَّلَة .
فان جوخ ..كان يرسم بريشته معاناته ، كان مريضا بالاكتئاب ، وكلما اشتدَّت عليه نوبات الاكتئاب كلما كان أكثر إبداعًا ، لوحته الشهيرة ..ليلة مضيئة بالنجوم ، رسمها أثناء إحدى نوباته ..
لكنه من فرط اكتئابه وعزلته كره نفسه كما كان كارهًا للعالم، فانتهى الأمر به في النهاية أيضًا إلى الانتحار..
فخري أبو السعود ، الشاعر المصري الشاب، الذي انتحر في أوج مجده لأنه لم يتحمَّل حقيقة أن يعيش دون زوجته البعيدة الحبيسة خلف حدود بلدها الأوروبي أو ولده الذي رحل عن العالم في عمر الزهور،

عبد الظاهر المكاوي ، أروى صالح ، وغيرهم الكثير ، جميعهم كانوا مبدعين، وجميعهم كرهوا عالمهم وأنفسهم ،فكتبوا نهاية كل شيء بأيديهم..

الإبداع والانتحار ، نهايتا كثير من المُعذَّبين بحق ، وأنا لم أصلْ لإحداهما ..بعد!

هؤلاء المُعذَّبون لم يتَّجِهوا إلى الإبداع مختارين ، بل مجبورين ، لأن عذابهم دفعهم إلى اعتزال الناس دفعًا ، وحيثما اختفى الناس وضجيجهم تجلَّت الموهبة ، وامتلأت المحابر واستنَّت الأقلام ، وضاقت الاختيارات أمامهم فلم يعد بإمكانهم سوى مصارحة الورق ، من يعاني ..من يتعذَّب لا يقوى على معاشرة الآخرين ، لأنَّه دومًا يرى نفسه عِبْئًا ، ضيفًا غير مرغوب فيه ، من يحتاج في حياته إلى مزيدا من الكآبة والطاقة السلبية ، مخالطتهم عبء عليهم ، وعبء عليه أيضا ، حين يتحدث إلى الناس عليه أن يخفي حروبه الخفية وحرائقه الملتهبة تحت الرماد ، يبتسم يضحك على الدعابة ويرد بأخرى أفضل منها ، يحاول ألا تقع عينا من يحادثه في عينيه ، كي لا يرى من خلالهما حزنه الدفين ، فيُظهر له الشفقة ، ذاك الشعور الذي يذبح كالسكاكين الماضية ..

حين أخاطب الناس أُفكِّر رغمًا عني أن كل ما يقولونه كذب ، ادِّعاء ، حين يقولون "اشتقنا لك" وحين يقولون "طمئنينا عليك" وحين يقولون "أحبك في الله" وحين يدعون لي بالخير والبركة ، ..أُفكِّر في كل ذلك أنه مجرد مجاملات سخيفة ، عناوين نبدأ بها الحديث ووصلات نوصل بها أجزاءه وخواتيم ننهيه بها بطريقة لَبِقة ، مجاملات سخيفة أضطَّر أن أجيب عليها بمجاملات أكثر سخفا ..

منذ بضعة أيام ، خرجت مع ليلى وبعض صديقاتها للتنزُّه. ذاك اليوم كان من الأيام القليلة التي أشعر بها أنّي إلى حدٍّ ما على ما يرام ، ورغم ذلك ، وفي منتصف جلستنا ، باغتتني إحداهن بذاك السؤال الذي أفسد ليلتي :"لِمَ أنتِ حزينة من الداخل" ؟!

رغم إني كنت في إحدى أيامي المزاجية الجيدة ، وغم كل الضحك والدعابة ،والشهية المفتوحة على غير العادة للأكل والكلام ، ورغم أن تلك الليلة كانت أول مرة نلتقي فيها ، باغتتني عالمة الغيب هذه بذاك السؤال الحاسم "لم أنتِ حزينة من الداخل" ؟

صمتُّ ، غضبْتُّ ، أردت أن أصرخ في وجهها ، ها أنا أضحك كبلهاء منذ بداية سهرتنا ، وأنت تسألينني الآن لِمَ أنا حزينة ، وحتى لو كنت كذلك ..ما شأنك أنتي؟ حبًّا بالله لقد التقينا للتوّ!

لكني اكتفيت بالصمت ، ووجه بارد ، شعرت بشفقتها علي ، وشعرت بالشفقة على نفسي ، رغم محاولاتي الجاهدة لأخفي روحي المُشوَّهَة فإنها تأبى إلا الظهور ، فيعلم الناس عذابي كما يعلمون أني مُمثِّلَة فاشلة ، ترقرقت دمعة في عيني ، ثم أجبْتُها بهدوء لا يتلوه عاصفة " لا شيء ، أنا بخير ، لست حزينة ألبتَّة"

تلك الليلة حاولتُ جاهدة ألَّا أُفسِد بهجة ليلى ، لكنها انتهت ككل سهرة يفسدها كآبتي وشرودي وصمتي ، أردتُّ أن أنهض وأتركهم ، وأعتذر كعادتي بمعاذير سخيفة ، لكني قررت ألا أفعل ، على كلٍّ كانت قد قاربت سهرتنا على الانتهاء ،كنت موجودة وغير موجودة ، ولم تكفّ ليلى عن سؤالي " ما بك " ولم أنت صامتة هكذا " كانت تسألني في تعجب أوّلًا ، ثم ضيق ، وأنا لا أجيب سوى بلا شيء ، وابتسامة زائفة ..

في أثناء عودتنا ، بكيت في صمت ، وتساءلتُ مِرارًا" لم أنا أنا ، ولم أكن شخصًا آخر؟"

حتى أمي رحمها الله كانت لا تكفّ عن التساؤل" لا أدري لم أنتِ هكذا؟" كأني خلقتُ نفسي !

وكانت تتبع ذاك التساؤل بالمبررات الكثيرة المنطقية والغير منطقية أني لابد وأن أكون راضية ، وأنه ليس هناك سبب لتعاستي ، "فلدينا المال ، ولدينا بيت فسيح ، ولديك عائلة دافئة ، ولديك عقل ذكي ساعدك أن تكوني طالبة في كلية مرموقة يتمناها جميع أقرانك ، كما أنك على قدر عال من الجمال ، وأما عن مرضك فالجميع لديهم ما يمنع حياتهم من الكمال ،لأن الكمال لله وحده ، والله اختار أن يجعل نقصك في صحتك ، نقصًا بسيطًا لا يمنعك من الحياة والعمل والزواج والأبناء والسعادة ، عليكِ إذن يا بنيتي بالرِّضا ، ودعكِ من الحزن والعزلة والاكتئاب حتى لا يكتبك الله في الجاحدين الكافرين بنعمته " .

أُظهِر لها اقتناعي ، وأحاول أن أبتسم ، وأسعى بكل قوة أن أقشع الحزن من قلبي ، وأُفكِّر بعقلي في كل ما قالته أمي فيقتنع بعض مني به: " ليس هناك سبب واضح لديّ كي أقلق من المستقبل ، أو أن أحزن على الماضي..العشق الرَّاحِل سيتبدَّل بعشق أفضل ، ومرضي لابدَّ وأنَّي سأُشفَى منه يومًا ، إذن فلأتفاءل ، ! "

ولكن ، بعض مني أيضًا لا يُصدِّق كل هذا ، جزء مني يظلّ قلقًا ،مرتعدًا، شاحبًا ، حزينًا ووحيدًا ، يريد أن يصرخ أني أنا على حق ، لكنه أخرس ، ورغم كل ذاك الضعف إلا أنه الجزء المسيطر ، الذي يتحكم بذاك الكيان المُظلِم المُسمَّى "شمس" .

ربما هو الأقوى لأني أريده هكذا ، لكن هذا ليس بيدي ، يا أمي وربِّ الكعبة ، وقبرك يا أمي ليس بيدي ، لو كانت السعادة قرار فهي قرار بيد القدر ، لا بيدي ! .

٥٢

جالسة في مكاني ومكان يحيى الخفي ، أحتسي كوبًا من الشاي الأحمر ، أستحضر هيئته كاملة ،صمته ،جِلسته ،جذعه المائل للأمام ،نظرته الحزينة ، ساقيه المتقاطعتين ،عقله الناظر إلى الوراء ، إلى الماضي ، إلى عشقه الذي تيبَّس قبل الأوان ، كان يجلس هنا كإله، لا يراه أحد ويرى هو كل أحد ،ويبعث فتاته من موتها رسمًا وكتابة على الأوراق ، ويُحاسِب نفسه ويقرعها باللوم على ما اقترفت ولم تقترف ، ثم يُصلِيها الجحيم ..

أُراقِب الجميع مثله ، طلبة وطالبات يغذون المشي إلى قاعات المحاضرات و مكتبات المذاكرة ،، أتخيَّل الصامتين منهم وهم يتكلَّمون ، وأتخيَّل الذين يتكلَّمون منهم وهم صامتون ، أتخيَّلهم وهم يرتدون ملابس الشتاء في ملابس الصيف وأتخيَّلهم وهم يرتدون ملابس الصيف في ملابس الشتاء ، أتخيَّلهم وهم عرايا ، أتخيَّلهم برأس حليق مثلي ، أتخيَّلهم وهم يأكلون أجسادهم ، وأجساد بعضهم كالضباع ، أتخيلهم وهم يقتلون أنفسهم ، وهم يذبحون أضعفهم ، أتخيَّلهم وهم يحترقون ، وهم يصرخون ، أكرههم جميعا ، وأكره أني لا أستطيع أن أنسجم معهم ، وأكره كرهي لهم ، أريد وبقوة أن أرتاح من كل ذاك الضجيج ويصبح الخواء سيد كل شيء ، حيث تتبخر الذكريات وتبيضّ الصُّحُف ، وتتكسَّر الأقلام فلا كتابة بعد الآن ، لا كتابة ،ولا شقاء ، ولا أنا ولا مرام ولا أبي الفاني ،ولا الشعور

المقيت الذي لم أجد له اسمًا بعد..

منذ فترة ، ابتكرت طريقة أهرب بها من شعوري ذاك ، خلقتُ لي مكانًا في مُخيِّلتي ، مكانًا دافئًا جميلًا مُعبَّأ بالطمأنينة وروح الطفولة ، مَرْجًا أخضر كبيرًا ينتهي بشاطئ رملي واسع ، يطُلّ على بحيرة كبيرة ، لا أدري إذا ما كان للبحيرات شاطئ رملي كالبحر ، لكن هذا ما صنعه خيالي ، و نعم ..كل المساحات كبيرة هنا لأن كل شيء مجاني ، وكل شيء مجاني لأنه وهم ، لكني أمتلك القدرة أن أشعر به كأنه واقع، حتى أكثر واقعية من عالمي الحقيقي المزري..

أتخيَّلني أمشي على المرج الأخضر أرتدي ثوبًا أبيض طويلًا و رقيقًا ، واسع الأكمام ، الشمس ضاحية ، الهواء عليل يُداعب رأسي شبه الحليق ، أغمض عيني لِأُشعل بقية حواسي ، أفرِد ذراعي كطير تحمله الرياح، أكمامي تداعب ساعدي ، الهواء يتخللني، يُداعب إبطي كأنه يريد أن يحملني ، قدماي عاريتان ، يتلذذان بنعومة العشب الأخضر الرطب ، أمشي خطوة خطوة ، الهواء يسندني ، كرضيع يمشي لأول مرة مُستَنِدًا على يد أمه ، أمشي ، أتجاوز المرج الأخضر ، أمشي فوق رمل الشاطئ ، في رمل الشاطئ ، قدم تغوص وأخرى ترتفع ، الرمل ناعم ، دافئ ، يُعانِق قَدَمًا ويُفلِت الأخرى ، أتوقَّف قبل حافَّة الرمل المُبتَلّ بموج البحيرة الهادئ ، لا أدري إذا كان للبحيرات موج كالبحر ، لكن هكذا صنعها خيالي،أنا لم أرَ بحيرة قبلًا ، لكن هكذا يصنع خيالي..

أجلس ، أفترش الرمل وأتربَّع ، أُتابِع طيرًا بُنِّيًّا لا أدري نوعه ، يصدح بصوت بعيد لا أتبيَّنه ، ليس بالعذب ولا بالناشز ، أغرس يدي اليسرى في الرمل ، أشعر بنعومته ودفئه، أحمله بكفي وأتركه ينساب بين أصابعي ، بجوار يدي اليمنى جذع شجرة مقطوع ، قصير بطول شبرين

،سطحه أملس ،وجانبه مُغطَّى باللحاء الخشن، ألمسه بيدي أتحسَّس تفاصيله ، وعيناي لا تزالان تتابعان الطَّائر حتى يختفي، كل شيء خيالي ، وكل شيء حقيقي، وفي غمرة هذا كله ، يختفي الشعور المقيت الذي لم أجد له اسمًا بعد ، يتلاشى تمامًا ، أشعر كأني عدْتُ طفلة مرة أخرى .. طفلة سعيدة وهانئة ..

هكذا هي جنتي..

الطفولة ..هي جنتي !

٥٣

ذاك المشهد الذي أهرب فيه من واقعي ، من شعوري الغامض الذي لم أجد له اسمًا بعد ، يصير حقيقيًّا أكثر فأكثر ، الزرع الأخضر ، الرمل ، البحيرة ، الطائر ، الشجرة المقطوعة ، النسيم الذي يُدغدِغ جسدي ، كل شيء يصير أكثر واقعية بدرجة تدهشني ، بِتُّ أرى ذاك المشهد في يقظتي ، وفي منامي ، وفي حالة غريبة بين الاثنتين ، أكون فيها بنصف وعي لكن بشعور كامل ونقيّ ، وانشراح صدر لم أدر له مثيلًا إلا في طفولتي البعيدة ، .. بل أني أضفت على ذلك كله بعض المرح والسعادة ، بيانو كبير كالذي كانت تعزف عليه محبوبة يحيى ، وضعته على الرمال بجوار بقعتي التي أجلس عليها ، ومن حيث لا أدري تعلمت العزف عليه ، وبِتُّ أتخيلني أتمشَّى نحوه بغرور ، و أجلس إليه بكل ثقة ، وأمدّ أصابعي إلى أصابعه لنعزف سويا ألحان بيتهوفن وموزارت و ألحان ياني ، وتغمرني السعادة كما لم تغمرني قبلًا ..

أرتاح في بقعتي الجميلة الخالية هذه ، لكنها تفصلني أكثر وأكثر عن ذاك العالم الحقيقي ، شيئا فشيئا يصبح ذاك العالم الحقيقي هو الخيال ، هو الحلم ، وعليّ أن أغمض عينَيّ وأفقد وعيي أو معظمه كي أستيقظ ، أحبّ ذلك ، لكني أخافه أيضا ، هذا بالنهاية هروب ، أهرب من اكتئابي ومرضي ووحدتي ، ومن ذاك العالم الذي أشعر كل يوم أنه يرفضني و يلفظني أكثر من اليوم الذي قبله..

بالنهاية هذا العالم ليس به مُتَّسَع للضعفاء ،لهؤلاء الذين يستيقظون باليأس وينامون بالمهدئات، الذين تتأرجح بهم الأمزجة فيومًا راضون

ويومًا ساخطون ، وساعة مبتسمون وأخرى مُقطِّبون،مُتقلِّبون ومتذبذبون في الشعور والقرار ،أولئك الذين قتلوا كل فكرة مشرقة وبائسة بحثا في أدمغتهم حتى استهلكوها واستهلكتهم، ففقدوا العزيمة والرغبة في التنفيذ ،أولئك المتأخرون دومًا عن مواعيدهم ، المنجزون فقط لنصف الأعمال لأنهم يمارسون كل شيء بنصف عقل وروح، أولئك الذين يقفون بمفردهم في وسط كل تجمع بشري مرتبكين ، تتلفت أعينهم بين الحضور ليجدوا أحدًا يعرفهم أو يعرفونه بلا جدوى ، المجهولون المنسيون ، العُذَّاب والآنسات الذين يعيشون في شقق مهملة بمفردهم ، مرتاحون في عزلتهم ومُعذَّبون بها ، ينامون حاضنين الوسائد المبتلة بدموعهم ، الذين تكتظ دفاترهم بمذكرات اليوم والأمس والأسبوع الماضي والشهر الفائت والسنة السابقة والزمن الغابر ، يَسُبُّون فيها آباءهم الذين صنعوهم ، والقدر الذي صنع آباءهم ، ويلعنون الناس الأغبياء الذين لا يفهمونهم ،يتوهمون أن أحدًا أصلًا يُبالي بهم أو يحاول فهمهم ،..

أولئك القليلو الكلام ، القليلو الشغف ، الذين يسيرون مُحَمَّلِين بدنياهم الثقيلة، وذنوب تُخزيهم وإن كانوا لم يقترفوها، فتتأتَّب ظهورهم وتنكسر نواظرهم إلى الأرض في خزي كالخارجين من حفر رجم الزناة ،أولئك الذين تغلَّقَتْ قلوبهم بأبواب مصفحة ذات مفاتيح ضائعة ،قلوب تطلب الموت وتهرب من الحب ، لأن الحب سبب للحياة ، و الحياة عندهم لم تعد تعني سوى الأنفاس ..

٥٤

"الموت شيء مرعب ، ليس في حد ذاته ولكن بما يتركه للأحياء من بقايا حياة الراحلين"

" محمد المخزنجي "

من بيتي ، من غرفة والدي المهجورة منذ وفاة أمي ،

أُطلِق من ها هنا تنهيدة طويلة ، وأنا أفترش الأرض بجوار مرام ، بعد أن أخرجنا ملابس أمي ومتعلقَّاتها من دولابها وسكبنا دموعنا فوقها ثم جلسنا إليها نُصنِّفها ، تمامًا كما فعلنا أنا وأمي ومرام عقب وفاة والدي ، غريب ما يحدث حين نموت ، ينتهِك أقرب أقاربنا حُرُمَاتنا كالتتر، يبعثرون أشياءنا ويكسرون صناديقنا السوداء وخِزننا المغلقة ويستبيحون أسرارنا ، كأننا بوفاتنا لم تعد تلك الأشياء تعنينا ، رغم أنها تعنينا أكثر ونحن موتى مما نحن أحياء ،لأن تلك الصناديق لو تكسّرت ، وتلك الخزن لو فُتِحَت ، وتلك الإسرار لو أُفشَت فلن نملك الفرصة العادلة لنوضّح ونبرّر ، ونحكي الحكاية بصدق وراء هذه الصورة ، أو هذه الرسالة الممتلئة بكلمات الحب المُشفّرة . أو تلك الوردة الذابلة المختبئة بين صفحات كتاب مُصفّر الأوراق ، أسرارنا هي أملاكنا التي لا ينبغي أن تُورَّث ، بل تذهب معنا ومع عملنا طيَّ التراب و جوف القبر..

لذا ، قررت_على الأقل إلى الآن_ أن تظل كل ورقة كانت أمي قد خبَّأَتْها ألا تُقرَأ ، وكل صندوق مُخبَّأ و مُغلق ألا يُكسَر ، ولا خوف من أن يفوتنا شيء من المال والذهب فقد كانت أمي قد أبلغتني مرارًا بمكان كل شيء

ذي قيمة مادية ..
و لكن مع إصرار مرام ، وافقتُ أن ننظر إلى الصور التي احتفظتْ بها أمي بدولابها ، خاصة إنها لم تكن تمانع أن ننظر إليها معها حين كانت تتملَّى في كل صورة على مهل بعد أن يخرج أبي إلى عمله ، تنظر إلى صورة فتبتسم ، وأخرى تنظر إليها فتذرف الدمع ، وثالثة تنظر إليها فتعيدها إلى الحقيبة في ضجر..
صورة تروي لنا قصتها في إسهاب ، وأخرى في اقتضاب ، وثالثة تسكت عنها وتكتفي أن تتأملها في صمت ، ورابعة تحكي عنها قصة ركيكة لا يصعب حتى على عقل طفلة أن تعرف أنها مزيفة ، وأن وراء الحكاية حكاية لا يجوز أن ترويها ، أو لا يجدي أن ترويها ، ..
كتلك الصورة التي تجمعها بذاك الشاب الوسيم طويل القامة في أيام دراستها بالجامعة ، وتضحك فيها ضحكة عريضة تفضح مدى سعادتها ، ذاك الفتى الذي كانت كلما سألناها عمَّن يكون أخبرَتْنا أنّه كان فقط "مُجرَّد زميل ، لا شيء مهم " وعيناها تحكيان ، أنّه لم يكن أبدًا كذلك ، بل أكثر من ذلك بكثير.. قصة حب غير مكتملة،ربما..
قناعتي أن لكل منا كسرة بيد الحب ، ربما كان هذا الشاب الذي لم تخلو منه صورة من صور أمي أيام الجامعة وتجمعها بزملائها ، وفي جميعهم يكون أقرب الحاضرين وقوفًا بجوارها ..ربما كان هو كَسْرَتها ، ربما كانت هي كَسْرَته ..
وربما كان أحد تلك الصناديق يحمل الإجابة ، لكن ذاك الفتى كان سرًّا ، وينبغي أن يظل كما هو.. سرًّا ..
كانت الصور في الحقيبة مُرتَّبَة بعناية ، من القديم إلى الحديث ، أمي

في طفولتها ثم في شبابها ، أيام الدراسة الثانوية ثم الجامعة ، ثم صور الخطبة من أبي، وصور أبي قبل الزواج ، ثم صور الزِّفاف ، ثم صوري ثم صور مرام ، كم كانت أمي جميلة ويافعة! وكم كبرتْ فجأة بعد الزواج وولادتنا! ازدادت بسرعة وزنًا وشيبًا وعمرًا ، كأن الزواج كان يأكل شبابها و روحها ، ويقيئهما شحمًا تحت جلدها وعلى كبدها وقلبها حتى أصابها الكسل والوهن والمرض ..

لطالما كنْتُ أرى الزواج بداية النهاية ،أن تختار طواعية أن تُنهي حياتك لتبني حياة أطفالك ، وتتخلى عن أحلامك و أهدافك ومالك وصحتك لتُوَرِّث كل ذلك لأبنائك ، كل ذلك بدوافع الغريزة والحب والإيثار التي زرعها الخالق فيك لولدك فقط كي يستمرَّ النّوع ولا ينقرض ؛فلولا حبنا للولد و إيثارنا له لما أنجبنا من يقتلنا ببطء ..

وتبقى تلك الصورة ، التي تجمعني بمرام وأمي في يوم عيد مولدي الحادي عشر ، تبقى أحب الصور إلي ، لأنها جمَّدت أثمن اللحظات بالنسبة إلي ..

أنا و مرام نرتدي القبعات الملونة ، ونقف فوق كرسيين أمام الطاولة التي تحمل كعكة عيد الميلاد الممتلئة بالشموع ، وأمي تقف بيننا ساندة يديها فوق كتفينا ، وقد مال ثلاثتنا على الكعكة لنطفئ الشمع.

هذا اليوم هو أخر يوم أذكر أني كنت سعيدة فيه، قبل أن تبدأ مأساتي مع ذاك الشعور الذي لم أجد له اسما بعد ، قبل أن أتوه بداخل ذاتي وتجرَّني الأيام بخبث نحو الانطواء و الاكتئاب المزمن ،وقبل أن أتمنَّى في كل مرة أنظر فيها إلى تلك الصورة لو أن الزمن كان توقف عند لحظة مثل هذه ، عند صورة مثل هذه ..

توقفتُ عند تلك الصورة طويلًا ،ثم قلبتُها كعادتي لأقرأ تاريخ الصورة " الأحد ٢٠٠٦/٩/٢٤ ، فوجدت تلك الرسالة مكتوبة بخط صغير على ظهر الصورة ، قرأت :

ابنتي و حبيبتي شمس..

أكتب إليك الآن ، لأني أشعر أن نهايتي اقتربتْ ، لا أدري لذلك سببًا واضِحًا لكن صوتًا بداخلي يخبرني أني راحلةٌ عمّا قريب ، وأكتب إليك هنا على ظهر تلك الصورة ، لأني أعلم أنها الأقرب إلى قلبك ..

لقد هاتفتني ليلى صديقتك وأخبرتني بما فعلْتِ بشعر رأسك،وكالعادة غضبْتُ، وحزنْتُ، وبكيْتُ ، وأردْتُ أن أهاتفك لأسلخك باللوم والتقريع كعادتي ، لكني في لحظة أفقْتُ ، للحظة خرجْتُ من جسدي ونظرْتُ إليّ ورأيتُني ، ورأيْتُ سذاجتي وضعفي ، وعلمتُ أني لطالما كنت الشخص الذي لا ينبغي أن أكونه بالنسبة لك ،لكني أريد الآن أن أخبرك يا بنيتي ، أني حين كنت أغضب فما كنت أغضب منك بل مني ، كنت أغضب من شعوري المقيت بالضعف وقلة حيلتي اتجاه معاناتك، وأصبُّ غضبي في صوتي العالي و دموعي ،حتى حمَّلتُك فوق حملك أحمالًا ، بدل أن أكون لك عونًا وسندًا وصديقة..

شمسي ، حبيبتي ، لن أدافع عن نفسي وأبرِّر كعادتي، بأني كنْتُ دومًا أشعر بالخوف والقلق لآني كنت دوما أشعر بالوحدة ، وعظم المسئولية المُلقاة على كاهلي ،نعم كنت أشعر بذلك حين كان أبوك لا زال بعد حيًّا و شعرتُ به أكثر حين رحل،ولطالما كنتُ أُبرِّر لنفسي بأني وإن كنتُ أمًّا فإني أيضا امرأة ، دومًا أحتاج إلى رجل أستند إليه و أحتمي به ، لكن الحقيقة أن كل ذلك لا يشفع لي أمامك ولا أمام

نفسي ، لقد كان
ينبغي عليّ أن أكون أُمًّا أفضل ، وأكثر تفهمًا وقربًا وحبًّا ..
أسألك الآن أن تغفري لي ، وأسألك ألا تستسلمي ،أعلم أنك ترين نفسك ضعيفة ، لكني لم أرك قط إلا فتاة قوية أقوى من الخوف والمرض وجراح القلب ، أقوى من الأيام ، و أقوي منّي ،من أمك التي في كل موقف كان ينبغي فيه أن تكون معك ، كانت ضدك ، وفي كل وقت كان ينبغي فيه أن تُربّت على كتفك وتضمَّك إليها كانت تنتظر أيَّ أحد أن يربت على كتفها ويضمَّها إليه..
شمسي ، إني لا أدري لي ذنبًا أكبر من ذنب ضعفي، أرجوك أن تسامحيني حبيبتي ..
اعتني بنفسك و بأختك ، و ابذلا كل طاقتكما ليكون جسداكما و نفساكما دومًا بخير ،إيَّاكما و إهمال العلم والمذاكرة ، و لا تتزوج إحداكما إلا رجلًا بحق و إن طال بكما الزمن قبل لقائه..

"غنّي،
و ارقصي
و ابتهجي ..يا شمسي
و أشرقي ،
في كل حين
في صباح الغمام ،
و بين قطرات السيل
و حين يغدو الحمام ..
و تحت ظلام الليل "

"و حرك في وجدانهم يقينا بأن بعد الغروب صبحا ..لابد أنه قادم مهما طال الظلام !"

" د. عماد زكي "

أحاول جاهدة التشبُّث بالحياة ..

لا أدري ما الذي أشعل عزيمتي ، ربما رسالة أمي ، ربما نظرة الخوف المختبئة خلف نظرة الحزن في عينَيّ مرام بعد رحيل أُمّنا .. تدفعني دفعًا كي أصير لمرام سندًا أقوى مما كانت أمي سندًا لي ..

أحضر محاضراتي بشغف ، أشترك في دورات كثيرة ، اقرأ كتبًا كثيرة ، أتعلم لغة جديدة، لا أترك وقتًا للحزن و القلق والشرود ، أحاول أن أخلق لي أسبابًا كي أبقى وأستمرّ ..

أدويتي تعيق تفكيري وحفظ المعلومات واسترجاعها ، لكني لا زلتُ أكافح ، و راضية أنا بتلك اللذة _ولو كانت ضئيلة_ التي أشعر بها أثناء محاضرة أو دورة حين أفهم شيئًا جديدًا ، فيضيء مصباح في رأسي يضيء له قلبي فيقشع ولو جزءًا يسيرًا من ظلمته..

ليت هناك دورة للسعادة تشترك بها ، وبعد أن تنقضي تحصل على سعادتك مع الشهادة ، لكن الأمر لا يجري كذلك ..

أيضًا أتعلم الموسيقى ، البيانو ، تلك الآلة الساحرة التي لطالما أبهرتني منذ طفولتي المبكرة ، تعلمتُ حينها العزف على البيانو لكني لم أتم تعلمه على الوجه المطلوب كأشياء كثيرة في حياتي ، و تركتُ العزف و اكتفيتُ بسماع الموسيقى ..

ليتني كنت مثل حبيبة يحيى ، أُجيد أشياءً كثيرة وأحب الحياة ، وبجواري فتي يُحبُّني كل ذاك الحب ، نعم ..لم أرها قبلا ، لكني أحبُّها كثيرًا ، وأتمنَّى لو كان بمقدوري مقابلتها والتحدث إليها ، ربما كانت ستعلِّمني العزف على البيانو ..

طلبت من مُعلِّمي أوّل ما طلبت أن بمجرد أن أتقن المبادئ أن يُعلِّمني عزف مقطوعة Für Elise

تلك المقطوعة التي عقدت الرباط بين قلب يحيى وقلب حبيبته ..

ربما أذهب يومًا وأعزف في غرفة البيانو مكانها ، وتربط تلك المقطوعة البيتهوفينية بين قلبي وقلب أخضر، كقلب يحيى ..

لكن في خضم كل ما أفعله ، ووسط محاضراتي ودروسي ، لا يغادر ذلك الوجه مخيلتي ، وجه الحياة السَّاخِر الذي يشبه قناع المسرح الإغريقي الضاحك.. لطالما تخيلت أن للحياة هذا الوجه ، تنظر به إليّ بسخرية خلف تعبي و مرضي و آمالي و أمانيّ ، تسخر مني ، وتخبرني في صمت أني أتعب بلا طائل ، وأشُقُّ طريقًا لا يُفضِي إلى نهاية ، وأن الطُّرُق ستظلّ تتفرّق بي ، تتجاذب أطراف حلمي وتتعارك على قدمي كي تسير فيها ، وأجد نفسي بالنهاية لم أصل إلى نهاية ، وفي منتصف كل طريق أتحوَّل إلى بداية طريق آخر ، كأنِّي في متاهة كبيرة ليس لها مخرج..

أكره وجه الحياة السَّاخِر ذاك ، ومهما حاولت أن أغُضَّ بصري عنه وجدته موجودًا في كل مكان ، حتى خلف أجفاني المغلقة .. يريد أن ينفث الهواء البارد ليطفئ جذوتي..

لكن ليس باليد حيلة ، لا يمكنني التوقف وترك كل شيء ، والجلوس

والبكاء للأبد ..أنا أفعل ذلك أحيانًا بل كثيرًا ..أنهار وأبكي و أبكي ، لكن شيئًا ما دومًا يأخذ بيدي ويُنهِضُنِي ، وبلا وعي أجدني ألملم شتاتي وأبدأ من جديد..

رغم مرضي .. رغم تعبي ، رغم وحدتي ..سأظل دومًا أنهض..

و أبدأ من جديد ..

"شمس ..

ليست أحدًا بعينه ،وليست عذابًا مميزًا فريدًا ..
إنها غير أحد يصرخ بصمت ، يبكي بلا دموع ، يخاف بلا سبب ..
شمس هي لوحة فنان لا يحسن الكلام سوى بالريشة ، ومقطوعة موسيقار لا يحسن الحديث سوى بدغدغة الأوتار..وحبات عرق على جبين عدّاء يكافح الألم بالركض ..وكلمات مغنٍ مذبوح أمام جمهور يصفق له في إعجاب..
وهي هنا كلمات مكتوبة ، كلماتي ، وكلمات كل من عاش بصمت ، ورحل في صمت . فلا تقرؤوها بعيني كاتبها ،لكن اقرأوها بأعينكم..
أنتم"!

د/محمود العادلي
(طبيب مقيم الأشعة التشخيصية و التداخلية - قصر العيني)

للتواصل :

https://www.facebook.com/mahmoud.eladly1

Dr.m.eladly@gmail.com

01119329892